

رُدييات

نوع الآداب والثقافة المعاصرة

١ الدين والجمال



أحمد محيي الدين



أحمد مجيب الدرد

إبراهيم الجبالي

"ابحث لي عن الصبر في بلاد الغيظ ، وعن الحق في بلاد الظلم ، وعن الجوع في بلاد الغنى".

قالها (الزين) فسأله الشيخ (عبد الحميد) مندهشاً :

- ماذا تقول يا (زين) ؟

- هذه أوامر الملك كي أتولى الحكم من بعده .

- الحكم !! هل ستكون الملك يا (زين) ؟

- هكذا أمرني الملك يا شيخ ، ماذا أفعل ؟

همس الشيخ كأنما يحدث نفسه :

- ليس له وريث .

- لكن له وريثة .

- هو يود إعدام من يتولى ملك البلاد من بعده ، أنت

تعرف أن النساء لا تصلح لهذه الأمور .

أخذ الشيخ (عبد الحميد) يتفكر قليلاً ، و(الزين)

جالس أمامه ينظر إليه حتى قال :

- أهذا فقط كل ما أخبرك به الملك ؟

المؤلف



رُدِّيَّات

نُبع الآداب والثقافة المعاصرة

الزَيْنَ ابن الجبال

(١)

رَدِجِيَّات

نِبع الأداب والثقافة المعاصرة

من : أدب ، وقصة ، ورواية ،
ودراسة ، وسير ، وبحوث ،
وفكر ، ونقد ، وشعر ،
وبلاغة ، وعلوم ، وتراث ،
ولغات ، وقضايا ، وتاريخ ،
 واجتماع ، وعلم نفس ،
ورحلات ، وسياسة ، إلخ .

تحت إشراف ومراجعة

لجنة القراءات

بالمؤسسة العربية الحديثة

شعار السلسلة

نحن نخرج لك أحسن الكتب

[حقوق الطبع محفوظة للناسر]

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر وتوزيع بالقاهرة - المطبع ٨ ، ١٠ شارع المنطقة لصناعية
بالمعسمة - منافذ البيع ١٠ ، ١٦ شارع كامل صنفى لفجلة - ٤ شارع الإسحافى : بمنشوية البكرى روكسى مصر
الجديدة - القاهرة ت : ٢٦٨٢٣٧٩٢ - ٢٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٢٥٨٦١٩٧ ، فاكس : ٢٠٢/٢٥٩٦٦٥٠ ج.م.ع -
الإسكندرية ٤ شارع بدوى / محرم بك - ت : ٠٣/٤٩٧٠٨٤٠ - ٠٣/٤٩٧٠٨٥٠

رَدِّيَّات

•
نِبع الآداب والثقافة المعاصرة
•

الزَّين ابن الجبال

الزَّين (١)

تأليف : أحمد محي الدين



مقدمة

الشجاعة تميزه ..

والقوة لا تنقصه ..

والخبرة يسعى إليها ..

والصحة الطيبة تلازمه ..

الزین هو شاب تبناه وعلمه الشجاعة وأخلاق الفرسان الشيخ
(عبد الحميد التوحيدى) .. الفارس المخضرم ..

وتوسم الملك (شاكسير) — الذى ليس له سوى (سولى) ابنته
الأميرة — فى (الزین) أن يصبح ملكاً للبلاد من بعده ..
فيقوم بتأهيله ليكون كذلك ..

يُكفى له من خبراته .. ويرسله عبر البلاد ليكتسب خبرات
خاصة به ..

(الزین) على استعداد لفعل كل شيء من أجل (سولى) الأميرة التى
يحبها .. وتحبه ..

ومن أجل بلاده التى نشأ فيها ولا يعرف غيرها .

لا يسعى الزین ليكون ملكاً .. ولكنه سيكون ..

لا يسعى الزین لأن يكون أسطورة ..

ولكنه سيكون ..

يعلم (الزين) أنه لا أحد ينجز أشياء عظيمة في الحياة بمفرده .. لذا
فقد حياه الله بصديقه (على) ، ومريه الشيخ (عبد الحميد) ..

سيجوب (الزين) البلاد بحثاً عن الصبر في بلاد الغيظ ..

وعن الحق في بلاد الظلم ..

وعن الجوع في بلاد الغنى ..

وسواجه الخطر لأجل ذلك ..

أين سيواجه (الزين) الخطر ؟

ومن سيواجه من صنوف البشر ؟

هذا ما نجاهه مع الفارس في سلسلة مغامراته كلها ..

المؤلف

١ - على التوحيدى ..

يسير بهدوء عبر سوق المدينة جواد يمتطيه (الزين) الذى جذبت مسامعه جلبة ، التفت فرأى فتاة وجاريتها يلملمان أشياء سقطت منهما ، وبائعاً مستأً يعتذر عن خطأ غير مقصود .. رمى بنظره على ما سقط فوجد برتقالات ، وبينما الجارية تطيب خاطر البائع ، رفع بصره لوجه الفتاة .. ولح حمرة خفيفة تزحف على وجنتيها عندما لاحظت وقوفه لتابعها دون المارين جميعاً .. كانت تنظر لعينيه فشعر بشيء يجتاحه للحظة ، لم يعرف كنهه .. وناداه شخص يهرول ناحيته لاهثاً يهمس بكلمات ، جذب بعدها (الزين) لجام جواده ، فرفع الحصان قدميه الأماميتين مطلقاً صهيلاً عالياً ، انطلق بعده بصاحبه المطارد بنظرات الفتاة .

* * *

ظهر (على) مقبلاً على صهوة جواده الراكض يلوح بسيفه ، وعلى جبينه تقطيب شارك مع عينيه فى صنع لوحة غضب بملاحه ، ثم وصل إلى بعض الرجال ذوى الملابس الخضراء الخشنة البدوية ، يبارزهم بسيفه .. فخرج عدد آخر بنفس الملابس من خلف الصخور القليلة المتناثرة فى الواحة ، كاد لهذا أن يزرع بذرة شك فى قدرته على الصمود أمامهم ، وخشى أن تكون نهايته سريعة على أيديهم ، لكن بينما هو يبارزهم متفادياً أحدهم طاعناً آخر ، تعالى إلى مسامع الجميع ضرب حوافر جواد تعلو من خلفهم ، وصوت من يمتطيه يصيح :

— لقد جئتُ يا (على) .. أنا معك .

ارتبكت صفوف ذوى الملابس الخضراء عندما رأوا الفارس المقلب

وصاح أحدهم بتوتر :

— إنه (الزين) .. (الزين ابن الجبال) .

تتم آخر بغضب :

— الفارس ؟! سحقاً .

كان الفارس شاهراً سيفه فاتجه نفر منهم يبارزونه ، بينما استعاد (علیّ التوحیدی) ثقته كاملة مرة أخرى ، وظهرت مهارته في المبارزة أكثر وهو يطير سيف أحدهم ويخدش كتف آخر متفادياً قتل أى منهم .. ما كاد ينتهى من آخرهم حتى سمع صوت (الزين) يقول :

— هيا افرغ من الأخير يا (علیّ) فلدينا أمر طارئ .

رد (علیّ) وهو يغرز سيفه بذراع آخر من بقى على صهوة جواد يسأل :

— هل فرغت منهم بهذه السرعة !!؟

— نعم يا (علیّ) ، لقد سئمت سؤالك هذا كل مرة .

ابتسم (علیّ) وهو ينطلق بجواده محاذياً (الزين) وهو يسأله :

— ما هذا الطارئ الذى تطلبني إليه ؟

ثم استدرك قائلاً :

— وكيف عرفت بأمر مبارزتي مع هؤلاء الرجال ؟!

— أمر معرفتي هذا سأفسره فيما بعد ، أما الآن فعلينا اللحاق بالشيخ (عبد الحميد) في داره ، بعض اللصوص حاولوا اقتحام بيته ، لكن أمسك بهم الجيران .

— ما كان هذا ليثير اهتمامك يا (زين) ، فهو أمر بسيط سيتولى الرجال تصفيته ، إن في الأمر أمرًا .. أخبرني به .

ابتسم (الزين) وهو يقول :

— صدقت يا (على) ، إن في الأمر أمرًا .. ألا ترى أنه ليس من الطبيعي حدوث هذا للشيخ (عبد الحميد) ؟

عندما وصل (الزين) و (على التوحيدى) دار الشيخ (عبد الحميد) ، وجدا أن اللصوص قد اقتيدوا إلى القاضى لينظر في أمرهم ويحكم ، وكان الشيخ يجوب أرجاء منزله قبل أن يجيب دقاتهما على الباب ، ثم عاد لما كان عليه مرة أخرى ، فسأله (الزين) :

— هل تبحث عن شيء يا شيخنا ؟

— أبحث عما سرقة اللصوص يا (زين) .

قال (على) :

— ولكن الجيران أخبرونا بأنهم فتشوا اللصوص ولم يجدوا معهم ما يريب أو يدل على سرقة ، أظن أن جيرانك كشفوهم في الوقت المناسب .

— أشياء تخصنى كنت أخفيها اختفت يا (على) ، كُتب وخرائط قديمة تهمنى جدًا .

قال (الزين) :

— هل نبحث معك ؟

هز الشيخ رأسه نفيًا وهو يقول :

— لا فائدة ، بحث في كل مكان .. لقد نالوا مرادهم .

— كيف إذن والرجال قد فتشوهم ولم يجدوا شيئاً معهم ؟ بل وكيف
أيضاً عرفوا ما تحبى ومكانه يا شيخ (عبد الحميد) ؟
جلس بائساً وهو يجيب :

— لا أدرى يا (زين) .. حقاً لا أدرى .

قال (على) :

— لا بد أن نخبر القاضى إذن باختفاء أشياءك يا شيخ .. فهو أغلب
الظن الآن سيعاقبهم بتهمة محاولة السرقة ، وليست السرقة فعلاً .

— لن يجدى شيئاً يا (على) ، فكما قال (الزين) لم يجد الرجال معهم
شيئاً ، فكيف سرقوا إذن ؟
— والأشياء مختفية ؟

— نعم مختفية ، ليست مسروقة ، سيقول القاضى إنها إهمال منى لا سرقة .
قال (الزين) :

— يا إلهى .. لكن ربما أخفوها في المنزل ليعودوا لها فيما بعد ، فلنبحث
في المنزل .

— بحثُ يا (زين) .. الأمر أكثر دهاءً مما ترى ، ولكن يجب أن
نتوصل إليه .

— كيف يا شيخنا ؟

— فقط سنعرف .. تعال يا معى .

وغادر الجميع الدار .

الليل .. و (الزين) يتقلب في رقدته تحت الغطاء ، يتابع إنصاته الذى طال لدقات قلبه المنمقة الهادئة .. هو الذى لم يعتد قلبه على هذا الحال من قبل .. جذب هذا القلب انتباهه كأنما لأول مرة يكتشف أن بين أضلاعه قلبًا ، حسبه من قبل طيلة يعلو قرعها وقت الشدائد ويسكن في لحظات الهدوء .

ظلت صورة الفتاة تعبر أمام عينيه كل فينة منذ تركها ، صورة غير محددة ، ربما لأنه لم يحفظ شكلها بهذه السرعة ، نظرة سريعة لا تكفى ، لكن في المرة القادمة عليه أن يحملق جيدًا لحفر صورتها في ذاكرته .. « وهل هناك مرة قادمة ؟ بلا شك .. بل لابد من مرة قادمة » .

رفس بقدميه الغطاء ، ثم اعتدل من رقدته وجلس ساخطًا على الأرق ، لم تلبث أن داعبت شفثيه ابتسامة ، وصورتها غير المحددة تمر أمام عينيه من جديد ..

— متى سأراها .. أقربيًا ؟؟

— بل سريعًا جدًا .

— هل سأعرفها إذن ؟

— تبًا ، أحادث نفسي ؟

— هل جننت ؟

— هل عشقت !؟

كان يتساءل ويحجب ، ثم استرجع كل ما قيل عن الحب الذى يصنع الخبال .. إنه لا يزال فى بداية هذه المشاعر ، وعندما يتعمق فيها سيصاب بالمزيد .. لكنها ليست بالمشاعر السيئة على كل حال .

أمر الملك (شاكسیر) الحاجب باستدعاء الوزير ، ثم اتجه بمحديثه إلى ابنته يسألها :

— أين كنت ووصيفتك ؟ بحثنا عنكما فى القصر والحديقة كثيرًا .

— كنت فى المدينة يا أبى ، أتفقد أحوال الناس وأستشعر آراءهم فى الحكم والحاكم .

استرعى الأمر اهتمامه فسألها :

— ماذا وجدت إذن ؟

— الرضا يا مولای .. إنهم قوم طيبون يا أبى والجميع يجد قوت يومه ، ولكن لاحظت حديثهم بنفور عن ذوى الملابس الخضراء .. قوم يقيمون فى الجبل على الجانب الشرقى من المدينة ، يقتحمون البلد ودكاكين التجار بين حين وحين .. فهمت أنهم قُطَاع طرق ولصوص لا تأمن الرعية على حياتها وأموالها منهم .

— لقد بذلت ما فى وسعى لإقصائهم وعزلهم ، ولكن دون جدوى .. إنهم ماهرون فى الاختفاء والمبارزة .

— ولكن يا أبى ...

دخل الحاجب معلناً وصول وزير الدولة ، فأمره الملك بالانتظار حتى ينتهى من حوارهِ مع الأميرة ، وبعد خروج الحاجب قال :

— لكن ماذا يا بنتي ؟

— سمعت أثناء عودتي أن شابين قد تبارزا مع بعض من ذوى الملابس الخضراء هؤلاء ، وأنهم قد أذوهم دون قتلهم .

بدا الاهتمام على وجه الملك وهو يسألها :

— شابان ومن يكونان ؟ ولماذا تبارزا معهم ؟ لماذا دون قتلهم ما داموا قد تغلبوا عليهم ؟!

ابتسمت الأميرة وهي تقول :

— مهلاً يا أبي .. لا أعرف إجابات كل هذه الأسئلة ، فقط نقلتُ إليك ما علمته من أحوال الناس وما يدور بينهم .

— لا بأس يا فتاتي ولكن كيف للأميرة مثلك أن تخرج وسط المدينة وتتعرف أخبارها ؟!

— بالطبع لم أكن أميرة يا أبتِ ، فقد ارتديت ملابس متواضعة كالدارجة بينهم ، وكذا وصيفتي .

ثم قالت بمرح مفاجئ :

— هل تعلم يا أبي .. لقد ابتعتُ برتقالاً كثيراً .

ضحك الملك وهو يقول :

— بالخارج أراضٍ مديدة نزرع فيها كل أنواع البرتقال .

— ولكن البائع الطيب كان يستحق أن أشتري منه كل ما يبيع .

— حسن يا بنتي .. اذهبي إلى غرفتك الآن ، ولا تكرري مثل هذا الفعل قبل أن تخبريني .

انحنت قائلة في تأدب :

— سمعاً وطاعة يا مولای .

ثم خرجت من الديوان ، وأمر الملك بدخول الوزير .

عندما شارف جواد (الزين) على الاختفاء عن ناظرها ، ألقى بنظرة خاطفة ناحيتها بسرعة لكن حجبا الغبار عنه ، هي لمحت هذه الالتفاتة ، فتألمت ابتسامة جذابة على شفيتها كأنما ترسلها له دون وعى .

جلست في غرفتها تحاول استعادة ملامحه حتى لاحظت صدرها الذي يخفق كنبضات عصفور ، ثم أطرقت برأسها خجلة عندما تذكرت تلك الحرارة التي شعرت بها في وجنتيها وأذنيها عندما نظر إليها الفارس .. أهو حقاً فارس ؟ كل شيء فيه يشي بذلك ، نظراته .. ملابسه .. وضعية جلوسه على الجواد .. كل شيء ، ولكن ما اسمه ؟ من يكون ؟ أهو أحد اللذين تقاتلا مع الرجال الأشرار ؟ ألهذا تركها بسرعة دون أن يتحدث إليها في السوق ؟

ما هذا الذي تشعر به الآن ؟ إنها لم تتبه لشاب من قبل كما حدث مع هذا الفارس .. ما اسم هذا الذي تشعر به إذن ؟

وانتفضت على صوت الوصيفة تستأذن في الدخول .

بعد أيام ، اقتحم كبير الجند ديوان الملك (شاكسیر) بعصية :

— كارثة يا مولای .. جيوش الغرب تتجه إلينا متحفزة .

كان في القاعة بعض ولاية المدن التابعة لحكم الملك (شاكسیر) ، وقد كفوا عن الحديث عند الدخول المفاجئ ، سأله الملك بقلق :

— لأي غرض ؟

— الحرب يا مولاي .. الحرب ، طريقتهم في التقدم تدل على نية الغزو ولا غير .

— متى سيصلون ؟

— (عين الدولة) يقول إنهم على مسيرة أقل من يوم .. هو الذي اكتشف زحفهم وجاء يبلغنا .

امتألت القاعة بهمسات كثيرة ، بينما وقف الملك يدور فيها كعادته كلما استدعاه أمر للتفكير ، ثم سأل الحضور :

— ماذا ترون ؟

وجه أحد الولاة سؤالاً :

— كم عدد الزاحفين يا كبير الجند ؟

— كثير يا سيدي .. جيادهم تثير غباراً كالعاصفة .

تساءل آخر :

— لماذا ينوون الحرب ؟ تجارتنا معهم رائجة وما عاديناهم من قبل .

أجاب أحد الجالسين :

— يطمعون في خير بلادنا ويهددون أمن أهلها .

جلس الملك على عرشه بينما قال رابع :

— هُراء .. لسنّا مطمئناً لهم فى شىء ، كل ما يريدونه يحصلون عليه
بالتجارة منذ سنين .. هناك ما يريب .

قال الملك بلهجة حازمة :

— جهز رجالك يا كبير الجند ، فعلينا حماية البلاد والدفاع عنها فى كل
الأحوال .. وحاول أن تبعث إلى بقائد جيشهم فور وصوله للتفاوض معه
ومعرفة سبب عدائهم المباغت ، فلسنا بلاد حرب ولا حاجة لنا بها .

انحنى كبير الجند وهو يتراجع بظهره قائلاً :

— سمعاً وطاعة يا مولاي .

صاح الملك بانفعال :

— أين وزير الدولة ؟

— كيف عرفت بملاقاتى ذوى الملابس الخضراء يا (زين) ؟

— أنت تُكثر من الأسئلة هذه الأيام يا (على) ، هوّن عليك .

— بل أنت تتجاهل الرد ، أربعة أيام حتى الآن ولم تجب سؤالى هذا .

— علمتُ بطريقتى يا (على) ، فأنت صديقى الوحيد ولا بد أن أعرف
عنك كل شىء ، حتى المكان الذى ستقاتل فيه بعض الحمقى بسبب تحدّ
غبى فى لحظة غضب .. لا بد أن أعلم به ولو لم تخبرنى بنفسك .

كما تشاء يا (زين) .. لن أكرر سؤالى هذا مرة أخرى .

كانا يسيران فى المدينة قبل أن يتوقف (الزين ابن الجبال) ويسأل :

— ألا تعرف ماذا فعل الشيخ (عبد الحميد) بعدما لم يجد أشياءه المفقودة ؟

— أظنه يحاول كتابة غيرها .. لقد ذكر شيئاً ما عن مخطوطات أولية أو ما شابه .

— عظيم .. هيا بنا نذهب إليه ، قد يحتاج لمعاونتنا .

— أئن تخبرني كيف عرفت مكانى يومها ؟

وقف (الزين) يقهقه كثيراً حتى جذب أنظار المارة فى شوارع المدينة ، مما أخجل (علىّ التوحيدى) الذى ترك صديقه يقهقه وحيداً وسار مبتعداً عنه ..

فى صمت .

٢ - الحکایة ..

وقف قائد جیوش الغرب أمام الملك (شاكسیر) واستهل حديثه بـ :
 — لو لم أرجع لجنودی خلال ساعة ، فسیقتمون القصر ویكتسحون
 كل ما فيه .

قال الملك بهدوء :

— أنت هنا في أمان ، ولك حرية الانصراف وقتما شئت .
 — هذا عظیم .. فقد غامرتُ بتلبية رغبتك للمثول أمامك كما أخبرني
 قائد جنودك .

— أنت هنا في ضیافتی ، ولا مغامرة في الأمر ، إنما أردت سؤالك عن
 سبب شروعكم غزو مملكتی .

— اتقاء لمشركم .. لقد وصلنا أنكم تخططون لغزو بلادنا .

بدت الدهشة على وجه الملك وهو ينهض سائلاً :

— من أخبركم بمثل هذا ؟ وما الدلیل على نية سينة نضمها لكم ؟

— وصلتنا بعض خرائط مرسومة لحدود دولتنا وبعض دول أخرى ،
 وكتب عن تاريخ الحروب وفنون القتال ، كتبها رجل من بلادكم علمنا
 أنه على ولاء للسلطة وارتباط بالملك .

— من يكون هذا الرجل ؟ وكيف وصلتكم أشياءه هذه ؟

— وصلتنا من محبی سلام في بلادكم لن نفصح عنهم .. والرجل يدعی
 الشيخ (عبد الحمید) ، هكذا اسمه على أغلفة الكتب وأذیال الخرائط .

— الشيخ (عبد الحميد) ! إنه رجل مخلص للوطن وداع للسلام بين الشعوب ، بالفعل هناك صداقة بينى وبينه وهو مؤيد لسلطتى فى البلاد كائى من أفراد الرعية ، ولا نضمّر نية لغزوكم أبداً .. سأستدعيه أمامك لنعرف كل شئ ، فهل توافق ؟

أخذ الرجل يتفحص وجه الملك ليتبين صدق كلامه من عدمه ، ثم أدار عينيه بين الحضور ، وكانوا وزير الدولة وكبير الجند والحاجب ، ثم أجاب :
— لا بأس ، ولكن علىّ إبلاغ جنودى بتأخرى عنهم قليلاً .. وأرجو نداء معاوى الأول من بينهم ليكون معى .

— سيقوم بهذه المهمة البسيطة كبير جندنا ، بينما يذهب الحاجب لاستدعاء الشيخ (عبد الحميد) .

خلع قائد جيش الغرب خاتمه المرصع ببواقيت صغيرة على جوانبه ، مسحه فى ملابسه وناول له لكبير الجند وهو يقول له :

— ناولهم هذا الخاتم ليثقوا فى كلامك .

أخذ كبير الجند خاتم قائد الجيوش وخرج من القاعة ، بينما بعث الملك حاجبه لتنفيذ أمر استدعاء الشيخ ، ثم نادى بضيافة كبير جيوش الغرب ومعاونه القادم ، وبتقديم الماء للجنود المنتظرين على حدود المدينة .. قال الوزير للرجل :

— أنتم — أهل بلاد الغرب — شديدو العصبية متسرعون فى اتخاذ قراراتكم .. لا تحكّمون عقولكم بروية .

كان القائد قد جلس بعد انصراف كبير الجند فأجاب :

— ليست بلادنا فى دفاء بلادكم يا وزير بلاد الشرق ، ولهذا الأمر

تأثیر بالغ علی تصرفاتنا .

— أرجو ألا تطمعوا فی دفع بلادنا إذن .

— نحن قوم مسالمون ، لكن عندما نلمح الخطر یقترب من بلادنا ..
فنحن شديداً الخطورة .

— لا داعی لهذه التعبيرات المعادية .. سوف تكتشف أن فی الأمر
التباساً شديداً ، وأن هناك من يسعى لإيقاع الفتنة بیننا و بینكم بطرق
رخيصة ، وما كان يجب أن تنطلي علیكم .

— نحن فی الحياة لتعلم أشياء كل يوم .

قال الملك وهو یبتسم :

— قائد حكيم .. إن إمبراطوركم لمن الحكمة أن عینك قائداً لجنوده .

— شكراً لإطرائك جلالة الملك .

تابع الملك :

— ما اسم ضيفنا قائد جيوش الغرب ؟

عرف الرجل نفسه ، بينما رجع كبير الجند یقول :

— لولا الخاتم ما شربوا الماء !

قال مساعد قائد جيوش الغرب بعصبية وهو يتبعه للقاعة :

— بل ولقتلوك واقتحموا المدينة !

رحب به الملك ، فرد علیه التحية بشيء من الفظاظه .. بعدها كبير
الجند سأل :

— ولكن لماذا فحسوا الخاتم طويلاً قبل أن يستمعوا إلى ؟

أجاب المساعد :

— إنها أمور خاصة بنا لا يطلع عليها غريب يا هذا .

كانت في لهجته عدائية واضحة خاصة مع تعبيرات وجهه الغاضبة ،
فأنقذ قائد الجيوش الموقف بقوله :

— لا بأس أن نخبرهم لنظهر لهم — على الأقل — حسن النية ، وأنا
قد جننا دفاعاً عن وطننا لا اقتحاماً لأرضهم .

ابتسم الملك وأعجب كبير الجند بما قيل ، فاستطرد قائد الجيوش
قائلاً :

— لو أنك انتزعت الخاتم وأعطيته لهم بعد عراك بيننا ، لناله بعض
الغبار فيعرفوا أنني أسيركم ، أما لو أنك أخذته بعد قتلى فلتلطخ
ولو بقطرة دم ، حتى لو مسحتها لعرفوا من مذاقه .. عندئذ يعرفون أنني
قُلت .

— ألهذا مسحت الخاتم في ملابسك قبيل مناوئتي إياه ؟ ظننتك فعلت
لتحافظ على بريق يواقيته الدقيقة .

— ربما هو سبب أيضاً يا كبير جند بلاد الشرق .

قالها مبتسماً ، بينما مساعده على حاله من التجهم .. والملك يتابع
الحديث المتبادل بقلق لتأخر وصول الشيخ (عبد الحميد) ، ثم قال
لمساعد القائد :

— تفضل من الفاكهة والشراب يا مساعد القائد .

نظر معاون قائد جيوش الغرب لقائده الذى أوماً برأسه ، فتناول مما أمامه وأخذ يتذوقه ، ثم يقضم بحذر .

— الملك يريدنى أنا ؟!

— نعم يا سيدى .. بل ويتعجلك أيضاً .

— حسن سأتى معك .. فقط انتظرنى هنيهة .

عاد الشيخ (عبد الحميد) للداخل فسأله (الزين) :

— ماذا هناك يا شيخ ؟!

— الملك يطلب حضورى فوراً .

— هل نأتى معك ؟

— لا أدرى .

أخذ يبدل عباءته ويسوى لحيته وشعره ، ثم قال :

— بل ابقيا هنا ، أكملوا رسم الخرائط كما أوضحت لكما .. أرغب فى الانتهاء من هذا الأمر سريعاً .

ثم خرج للحاجب يصحبه إلى القصر .. قال (على) :

— تُرى ماذا هناك يا (زين) ؟

— لا أعلم يا (على) .. فلم يسبق للملك استعجال الشيخ (عبد الحميد) بهذه الطريقة .

— فى رأيك ماذا علينا أن نفعل ؟

— لا شيء .. سننفذ ما طلبه منا لنتهى من أمر الخرائط هذا بسرعة كما يريد .

قال (على) وهو يقلد خريطة أمامه بخطوط ملونة في ورقة أخرى :

— هل تتذكر عندما كان هذا الرجل عالماً وفارساً لا يشق له غبار ؟

— ما زال عالماً يا (على) وروح الفروسية بداخله تنبض طوال الوقت .

— أنا أشكر له أن رعاني واهتم بي منذ حداثتي .

رد عليه (الزين) :

— لقد جعل منا فارسين حقيقيين ورعانا جيداً .

— إن أمثاله يستحقون الخلود ، ليظل الجانب الطيب من الحياة أقوى من الخيـث .

— على مر الزمن كان هناك وسيكون من أمثاله الكثيرون .. أنت أحدهم .

لم تمض ساعة بعد الحوار حتى دق الباب مرة أخرى ، فقام (على) ليرى الطارق فبدأ له وجه الحاجب ، وقبل أن يفتح الحاجب فمه صاح (على) — (الزين) :

— إن الأمر جد خطير يا (زين) .

وقف (الزين) و (على التوحيدى) إلى جانبي الشيخ (عبد الحميد) الجالس في ديوان القصر الملكي ، أمام قائد جيوش الغرب ومساعدته ووزير الدولة .. سألهما الملك :

— ماذا تعرفان عن ذوی الملابس الخضراء ؟

نقلًا بصرهما إلى بعضهما ، ثم إلى الشيخ (عبد الحمید) قبل أن يبدأ (علی) بالكلام قائلاً :

— إنهم قاطعو طرق ولصوص متمرسون ويقال إنهم يهود ، إذ إنهم لا يجازفون بأنفسهم في سرقة إلا بعد دراسة جيدة ومعرفة لكل التفاصيل التي من شأنها إنجاح خططهم .. هم شديدو البأس يرأسهم قائد جيش سابق ليس من بلادنا يُدعى (سانتور) السفاح .

— هل أنت من تغلب عليهم منذ أيام قليلة خارج حدود المدينة ؟

— إنه (الزين) قد عاونني في هذا الأمر .. ولولاه لُقِضَ عليّ ، فعددهم كان كبيرًا يا مولاي .

— ولماذا يرتدون الزي الأخضر تحديدًا ؟

— هو زي موحد ليعرف بعضهم بعضًا ، وأغلب الظن أنهم يرتدونه ليسهل عليهم التخفي وسط الأشجار وبين الأعشاب ، خاصة وأن هذه الملابس تتميز بلون الرمال من الجانب الآخر .

— وكيف لك ولصديقك التغلب على رجال أشداء كهؤلاء ؟

أجاب (الزين) هذه المرة :

— صداقتك القديمة للشيخ (عبد الحمید) يا مولاي تسهل الإجابة ، فهو أشجع فرسان البلاط الملكي في العهد السابق ، وقد رعانا منذ صغرنا فلم نعرف لنا أبًا غيره ، وهو من علّمنا العديد من مهارات القتال والمراوغة .

— هل أنتما يتيمان ؟

قال الشيخ (عبد الحميد) مقاطعاً :

— فلنناقش أمرهما فيما بعد يا مولاي كي لا تؤخر ضيوفنا أكثر من هذا .

استدار الملك إلى قائد جيوش الغرب قائلاً :

— إنهم سيبيتون عندنا الليلة إن شاءوا ضيوفاً مكرمين ، ولهم الحق في الرحيل ، وقتما أرادوا .

قال القائد :

— نشكر لك كرمك يا جلالة الملك .. لكن الإمبراطور بلا شك يتحرق لمعرفة تطورات الأحداث ، ولا بد من نقل الصورة الجديدة له حتى يهدأ باله ويأمن على الوطن من ناحيتكم .

— لا بأس يا قائد الجيوش ، وهذه الدعوة متاحة لكم في أى وقت .. بلغ تحياتي للإمبراطور .

انحنى قائد الجيوش ومساعدته تحية للملك ، ثم انصرفا من الديوان ، فعاد الملك للشيخ (عبد الحميد) يسأله :

— ما حكاية هذين الشابين يا (عبد الحميد) ؟ كيف لم أسمع بهما من قبل ؟

— فليسمح لهما مولاي بالجلوس أولاً .

أشار الملك لهما بيده ، فجلسا جوار الشيخ الذي تابع وهو يضع كفه على كتف (على) :

— إن (على) ابن قريب لى توفي وزوجته بعد إنجابها بشهور قليلة .. فرعيته كما لو أنه ابني أنا ، وأنت على دراية يا مولاي بأني لم أرتبط بعد وفاة زوجتي .

أوما الملك بينما أطرق (على) برأسه ، وأكمل الشيخ :

— أما (الزین) فكان بين الجبال أثناء تفقدى ذات مرة الجانب الشرقى للمدينة ، يوم كنتُ كبير فرسان القصر يا مولای .. كان وجهه مليحاً فأطلقت عليه (الزین) ، ولما لم أعرف له أهلاً فدعوته بـ (ابن الجبال) .. الجبال التى احتضنته حتى وجدته .

توقف الشيخ قليلاً عن الحديث يلتقط أنفاسه ، وأمر الملك بالماء والفاكهة وبعض من شراب الفاكهة لكل الحاضرين .. كان الوزير صامتاً كعادته يتابع ما يقال .. وما إن شرب الشيخ بعض الماء حتى شرع فى إكمال حكايته :

— ربيتها قدر ما استطعت ، وعلمتهما القراءة والفروسية وإمسك السيف .. لاحظت نبوغهما واستيعابهما السريع ، وإن تفوق (الزین) أحياناً على (على) فى بعض الأمور .

ابتسم (الزین) وهو يلقي بنظرة سريعة لـ (على) الذى شعر بها فلم يُدر وجهه ناحية رفيقه ، والشيخ يكمل مستطرداً :

— لم أخبرك بأمرهما يا مولای خشية أن تظن فى نيتى غرضاً ما بشأنى أو شأنهما ، فأنا لا أحب إثارة الشكوك .

— إننا أصدقاء قدامى يا رجل ، كيف يمكن أن أسىء الظن بك ؟!

— لقد كانت هذه الأحداث فى بداية تعارفنا يا مولای .

— يا إلهى ، هل هما بهذا القدر من العمر ؟

— نعم يا مولای إنهما يشرفان على عامهما الثلاثين رغم عدم وضوح هذا على وجهيهما .. وأحياناً لا يظهر على تصرفاتهما أيضاً .

قالها وهو يدبر بصره بينهما فأطرقا خجلاً ، بينما دخل الحاجب يهمس
في أذن الملك بشيء فقال الملك :

— دعها تدخل ، فهذا وقت تناول العشاء .

وأمر بتحضير المائدة .

سار الشيخ (عبد الحميد) مع (على) و (الزين) عائدين إلى داره ،
فسأله (على) قائلاً :

— ماذا حدث في القصر يا شيخ ؟ وما الأمر ؟ ولماذا استدعوك
واستدعوننا ؟

— مؤامرة يا ولدى .. (سانتور) يدبر شيئاً عظيماً .

سأله (الزين) بقلق :

— ماذا هناك يا شيخ ؟

— الغرب كانوا هنا اليوم لغزو بلادنا ، بعد أن وصلتهم أخبار عن
نيتنا في غزوهم .

— كيف هذا ؟ إن الملك يستحيل أن يقرر شيئاً كهذا أبداً .

— هذا صحيح يا (على) ، لكن (سانتور) أرسل رجاله لسرقه كتي
التاريخية وخرائطه ، ثم بعث بها إلى إمبراطور الغرب يحذرهم من تخطيطنا
لغزوهم ، كانت الخرائط والكتب دليلهم على هذا .

— ولكن لم نجد مع اللصوص شيئاً يا شيخ !!!

تفکر الشيخ قليلاً ، ثم قال :

— الآن فهمتُ خطتهم يا (زين) ، لقد حملها أحدهم وفر ، ثم تستر عليه الآخرون بالاستسلام للجيران كي يلهوهم عن وجود آخر معهم حتى يبتعد بالقدر الكافي ، ويصبح في أمان .

— خطة ماهرة .. وفيم كانت الخرائط والكتب منذ البداية يا شيخ ؟

— يا ولدى ، إن الكتب تذكر تاريخ الحروب في بلادنا والبلاد الأخرى وما آلت إليه هذه البلاد ، كما تذكر أنماطاً من الخطط الحربية التي استخدمها القادة وقتها .. أما الخرائط فبعضها قديم يوضح ما كانت عليه الدول قبل الحروب وبعدها من زيادة أو نقصان في مساحتها وحدودها ، هذا ما استخدمه رجال السفاح ضد الملك .. أنا أحصر هذه الأشياء وأحسن صياغتها ليستفيد منها البشر بعد أن أفرغ منها ، فربما يجمعون عن صراعاتهم وتندر الحروب .

— كيف عرفوا بوجود هذه الأشياء وبمكائنها يا شيخ ؟

— لا أدري يا (زين) .. حقاً لا أدري .

وصلا منزل الشيخ (عبد الحميد) الذي دخل منهكاً من عناء اليوم ، وعقلا الفارسين يبحثان عن إجابة للسؤال الذي طرحه (الزين) ، وكان (الزين) يسترجع الأحداث الأخيرة في قصر الملك ، العشاء وابنة الملك التي شاركتهما فيه .. دقائق قلبه المتسارعة .. عدم تركيزه في الحوارات التي كانت على المائدة ، كان يحاول تحديد مشاعره تجاه كل هذه الأمور .

كانت جياد الغرب تتجه إلى بلادها في رحلة تستغرق يومين ، ويتوسط الجنود قائدهم ومساعدته الذي سأل :

— هل تظنهم حَسَنِي النية حَقًّا أيها القائد ؟

— نعم ، لكن هذا لا يعنى أن نأمن جانبهم تمامًا .. علينا الحذر دومًا حتى تثبت الأمور على حاتها .

— لماذا إذن لم نقم بمهمتنا الرئيسية ؟ كان بإمكاننا سحقهم بسهولة .

— الحرب ليست الوسيلة الأولى في مواجهة الخطر .. ولا تنس جنودنا الذين سيصابون ويموتون من جراء معركة يمكن تلافيها ، بما فيهم أنا وأنت .

— أنا لا آبه بما يصيبني في سبيل البلاد والإمبراطور .

— الشجاعة لا تعنى الحماسة .. سنخبر الإمبراطور بكل ما حدث وأضيف رأيي الخاص ، وله حرية التصرف كما يشاء .. عد إلى المقدمة الآن ، هيا .

ونفذ المساعد أمر قائده ..

وصل (الزين) داره وبدل ملابسه ، ثم جلس على الفراش يتذكر دهشته لرؤية الأميرة تدخل عليهم بملابسها الأنيقة التي لا تقارن بتلك يوم رآها في السوق مع وصيفتها .. نظرًا الأخيرة له من خلف الغبار الكثيف وهو منطلق بجواده .. نظرًا له على مائدة الطعام .. ملاحظها التي عاهد نفسه بتفرُّسها والتدقيق فيها ليحفظها في عقله .. بل في قلبه .. « كم هي جميلة ! »

واستمر في خواطره حتى نام .

٣- الرحلة ..

فتح (على التوحيدى) باب منزله بعد الطرقات المميزة لـ (الزين) وهو يقول متثابًا :

— مبكر أنت اليوم يا (زين) ، خيرًا ؟

— أرسل الملك فى طلبى ، تعال معى . .

تنبه (على) وزال عنه الخمول ، وهو يقول :

— سأتى معك حتى القصر ولكننى لن أدلف إليه .

— ولم ؟

— هل ذكر الملك اسمى فى استدعائه لك ؟

— كلا .

— إذن سأكون بانتظارك خارج القصر ، فإن احتجتنى تجدى قريبًا .

— لا بأس .. هيا بنا .

سارا معًا يحاولان استنتاج سبب الاستدعاء حتى وصلا بوابة القصر ، فدخل (الزين) وبقي (على) .

رحب الملك بـ (الزين) الذى لم يلمح الشيخ (عبد الحميد) فى المكان المقتصر على الملك والوزير ، بعد خروج الحاجب الذى أوصله .. قال الملك :

— لا تقلق يا (زين) فالشيخ (عبد الحميد) لا يستيقظ مبكرًا هكذا ..

ضحك الملك قليلاً ، ثم استطرد :

— لقد جالت بخاطري فكرة أرقنتي طوال الليل ، فلم أطق صبراً حتى أخبرك بها ، كما لم أشأ إزعاج الشيخ في هذا الوقت المبكر وهو - دون شك - سيعلم بما دار هنا فيما بعد .

ظل (الزين) ما بين ابتسامة وصمت والملك يكمل كلامه :

— هل تعرف كم أبلغ من العمر يا (زين) ؟

— أ طال الله بقاءك يا مولاي ، أظن جلالتك على مشارف السبعين .

ضحك الملك وهو يقول :

— نظرة ثاقبة يا فتى ، رغم أنني أبدو أصغر سنّاً لكوني فارساً سابقاً اشتعلتُ طاقة وقوة في شبابي .

مرت لحظات صمت في الديوان وبدا الملك كأنما يفكر أو يتذكر شيئاً ، ثم سأل :

— ماذا لو حكمت البلاد يوماً واحداً يا (زين) ؟ هل تقدر ؟

بدا التعجب على وجه (الزين) قبل أن يقول بصوت يشوبه التوتر :

— لا يوجد من يقدر على فعل شيء في حكم يوم واحد يا مولاي ، لكن أظني سأتابع حفظ أمنها في هذا اليوم .

ابتسم الملك معجباً بالرد ، ثم قال :

— وماذا لو حكمت البلاد شهراً ؟

— سأحاول الحفاظ على أمنها يا سيدي .

دقيق هذا الشاب في انتقاء كلماته ، « سأتابع » ثم « سأحاول » ، هكذا

خطر للوزير بينما استمر الملك في سؤال (الزين) :

— ماذا لو أنك حكمت البلاد عامًا ؟

صمت (الزين) برهة متطلعًا إلى الملك محاولاً سبر أغوار عقله لمعرفة ما يدور فيه ، ثم قال :

— أظن هناك من هم أكثر كفاءة منى لحكم البلاد طيلة هذه الفترة يا جلالة الملك .

قهقهه الملك وابتسم الوزير الصامت ، فابتسم (الزين) بدوره مجازاة للموقف ، كل هذا وهو واقف أمام كرسي العرش الذى قام الملك من عليه متوجهًا (للزين) يربت على كتفه :

— وزير الدولة والشيخ (عبد الحميد) قد طعنا في السن يا (زين) ، صحيح أنهما يملكان الحكمة والخلق ، لكن تنقصهما القوة .. وأنت شاب فارس ، لكن تنقصك الخبرة في أمور كثيرة .

عاد الملك للعرش يجلس عليه وهو يقول بحزم :

— هل تقبل حكم البلاد من بعدى يا (زين) ؟

اتسعت عينا (الزين) وفغر فاه ، ثم تدارك نفسه سريعًا من وضع ملامحه هذا ، وتابع دخول الحاجب يهمس في أذن الملك بشيء ، فأمره الملك :

— أدخلها .

أحنى الحاجب رأسه وخرج من القاعة لتدخل الأميرة (سولى) بزي يتناسب مع أناقة أميرة ، ووجه مبهج يشع بابتسامة بسيطة ، وهى تتجه بخطوات رشيقة إلى كرسي العرش لتقبل والدها محيية :

— عمت صباحًا يا جلالة الملك .

— عمت بالخير يا بني .

انتقلت ببصرها إلى الوزير :

— عمت صباحًا يا وزير الدولة .

قال الوزير بصوت رزين :

— عمت صباحًا يا أميرة البلاد .

جلست بجوار والدها وهي تنظر إلى (الزين) مبتسمة تسأله :

— خيرًا أيها الفارس ، هل لك مظلمة لدى الحاكم ؟

— بل أنا هنا بناء على طلب مولاي الملك أيتها الأميرة .

قال الملك :

— تابعي حوارنا في هدوء وستعرفين كل شيء .

أومأت برأسها متفهمة وابتسامتها لا تفارق شفيتها ، ثم أدار الملك وجهه ناحية (الزين) مرة أخرى وقال :

— لم تُجب على سؤالى بعد يا (زين ابن الجبال) .

لم يفهم (الزين) سبب تلقيب الملك له — (ابن الجبال) في هذا الموقف ، لكنه تجاهل هذه النقطة قائلاً :

— هذا شرف عظيم يا مولاي ، ولكنها مسئولية عسيرة لا أظننى على كفاءة لتحملها .

— ستمتلك هذه الكفاءة يا (زين) .. ستمتلكها قريبًا لو أنك قبلت

تنفيذ ما سأطلبه منك ، وستكون عاقبتك خيرًا بإذن الله .

صمت (الزين) برهة لاستيعاب الأمر ، ثم بحث عن رد مناسب فلم يجد من توتره سوى :

— أنا في خدمة البلاد .. وفي خدمة مولاى الملك .

— اسمع يا (زين) .. اسمعنى جيدًا فما سأطلبه منك عسير ، ولكننى أتق فى قدرتك على تنفيذه .

ثم أخذ الملك يحدث (الزين) الذى كانت عيناه تتسعان شيئًا فشيئًا ، وعقله يتشتت بين أمور عديدة متغيرة .. وازداد توتره حتى شعر برجفة لم يلمحها الملك .. أو ربما تجاهلها ، لأنه كان مستمرًا فى حديثه دون توقف .

* * *

« ابحث لى عن الصبر فى بلاد الغيظ ، وعن الحق فى بلاد الظلم ، وعن الجوع فى بلاد الغنى .. »

قالها (الزين) فسأله الشيخ (عبد الحميد) مندهشًا :

— ماذا تقول يا (زين) ؟

— هذه أوامر الملك كى أتولى الحكم من بعده .

— الحكم هل ستكون الملك يا (زين) ؟

— هكذا أمرنى الملك يا شيخ ، ماذا أفعل ؟

همس الشيخ كأنما يحادث نفسه :

— ليس له وريث .

— لكن له وريثة .

— وهو يود إعداد من يتولى مُلك البلاد من بعده ، أنت تعرف أن النساء لا تصلح لهذه الأمور .

أخذ الشيخ (عبد الحميد) يفكر قليلاً و (الزين) جالس أمامه ينظر إليه حتى قال :

— أهذا فقط كل ما أخبرك به الملك ؟

— نعم ، وسمح لي باصطحاب من أشاء معي في رحلتي هذه .. وأنا أستاذك في صحبتي .

— وحدنا ؟

— و (على) بالطبع .

— هل أخبرته ؟

— نعم .. لكن أخبرني رأيك .

صمت الشيخ قليلاً وهو ينظر في عيني (الزين) ، ثم قال :

— على بركة الله ، متى ستتطلق في رحلتك العجيبة هذه ؟

— طلب الملك أن أحدد وقتاً وأمثل بين يديه قبيل خروجي من البلاد .

— اختر وقتاً مناسباً مع (على) ثم أخبراني بما تقررانه .

— أمرك يا شيخ .. إلى اللقاء .

— صحبتك السلامة يا (زين) ..

ملاً لیل ما قبیل الفجر سماء البلاد عندما دلف الشيخ (عبد الحمید) مع (الزین ابن الجبال) و (علیّ التوحیدی) قصر الملك (شاکسیر) طالین إیقاظه من نومه للمثول بین یدیه ، ولما خرج لهم الملك مرحباً بكلمات يشوبها النعاس ، تكلم (الزین) :

— سنترك البلاد الآن یا مولای لبدء رحلتنا .

— أحسنت باصطحابك الشيخ (عبد الحمید) یا (زین) .. و (علیّ) كذلك ، نعم الصحبة لك .

ابتسم (الزین) ، وهو يقول :

— الشكر للشيخ فی موافقته صحبتي ، أما (علیّ) فلا خيار له یا مولای .

ابتسم الجميع والملك یصافحهم متمنياً لهم التوفيق ، قبل أن يتبادل مع الشيخ (عبد الحمید) نظرة طويلة بلا كلمة واحدة .. ثم خرج الجميع .

امتطى كل منهم جواداً ومعهم فرس تحمل زادهم وسلاحهم ، ثم سأل (علیّ) :

— سنتجه شمالاً أم جنوباً یا (زین) ؟

— أرض المغول القديمة بالشرق فیها من الظلم ما أظنه یكفی حاجتنا منه ، فلنتجه إليها .. ما رأيك یا شیخنا ؟

— أنت القائد یا (زین) فتعلم أن تتخذ القرار بعد المشورة لا قبلها ، وأن باتخاذك القرار فلا رجعة .

احمر وجه (الزین) فعاجله الشيخ قائلاً :

— لا تخجل یا (زین) أنت فی هذه الرحلة لتعلم ، ولا یخجل المرء من كونه تلميذاً قط .

ثم ابتسم الشيخ وهو يكمل :

— إلى الشرق يا (زين) .. على بركة الله .

ولكز جواده باتجاه الشرق ، بينما ضوء الفجر يبدأ في الانتشار .

دخل قائد جيوش الغرب مدينته ، بعد توزيع جنوده خارجها لتسليم جيادهم وأسلحتهم لزملائهم قبل الذهاب للراحة من عناء السفر ، ولاحظ أول ما لاحظ تجهم الناس في الطرقات ، ورغم هذا لم يتباطأ لحظة في طريقه إلى قصر الإمبراطور .. وما إن ترك فرسه عند الباب العملاق للقصر ودخل محدثاً الحاجب حتى عرف أن الحاكم توفي فجأة منذ سويعات قليلة ، وتقلد ابنه تاج الإمبراطورية وجلس على العرش .. كان عناء السفر مع الخبر الجديد كافيين ليجلس القائد على الأرض أمام الحاجب يقاوم دمة تصر على السقوط من عينيه .

ظل الحاجب صامتاً حتى استعاد قائد الجيوش نفسه ، وطلب إذن الدخول على الإمبراطور الجديد ، وما كاد يؤذن له حتى دلف وبادر بقوله :

— العزاء للإمبراطور ، والمباركة له .

كان يقف بجوار الإمبراطور شخص عرف فيه صديق جلالته من الصغر ، بينما أشار الإمبراطور بيده إشارة ليست ذات معنى وهو يعلو بذقنه المدببة ويميل برأسه ، ثم يقول :

— مرحباً بك يا قائد الجيوش .. هل انتهيت من معركتك سريعاً هكذا ؟

— لم تكن هناك أية معارك يا مولاي ، فالأمر يحوى بعض سوء الفهم .

أخذ يسرد ما دار في قصر ملك الشرق وأضاف رأيه الخاص في النهاية ، بعدها تجهم الإمبراطور قليلاً قبل أن يميل عليه صديقه ويهمس بشيء جعل الإمبراطور يقول :

— يقترح وزيرنا أن نُخرس ألسنة الشعب بالاستيلاء على مملكة الشرق التي تنوى غزونا ، وفي هذا تثبيت لحكمي الجديد وإبراز لإمكاناتي يا قائد الجيوش ، فهل تقدر ؟

اضطرب قائد الجيوش ، ليس فقط لرغبة الإمبراطور في تدمير بلاد الشرق وإنما لأنه وصديقه سيكونان — بهذا الأسلوب في التفكير — وبالأعلى بلاده نفسها .. تظاهر بالتفكير قليلاً قبل أن يقول :

— هل يأذن لي سيدي بالراحة لأجيد التفكير واتخاذ القرار الذي يحظى بتأييدكم ؟

نظر الإمبراطور لوزيره الذي أوماً برأسه فسمح لقائد الجيوش بما طلب ، وانصرف من توه .

طيور تحلق تحت السحاب العابر ، (الزين) في رحلته مع رفيقه حتى جن الظلام وهم على مقربة من بعض الجبال المنتشرة ، قال الشيخ :

— فلنبحث عن كهف مناسب في أى من هذه الجبال نقضى فيه الليل يا (على) .

— حسن يا شيخ .

قال (الزين) :

— سأتجه نحو هذا الجبل يا (على) أتفحصه ، وانظر أنت في ذلك الآخر .

قالها وهو يشير بيده ناحية ما يقصد بكلامه ، ثم انطلق إلى حيث اختار لنفسه واتجه صديقه إلى حيث كُلف ، بينما انتظر الشيخ (عبد الحميد) مع الفرس يتابعهما بنظره إلى أن صاح (على) :

— هنا يا (زين) .. يوجد كهف مناسب هنا .

اتجه الشيخ و (زين) ناحية الصوت حتى وصلا إليه ، فوضعا أمتعتهما وجلس الجميع على الأرض .

— أما زال أماننا الكثير يا شيخ حتى نصل لوجهتنا ؟

أخرج الشيخ (عبد الحميد) خرائطه ينظر فيها على ضوء مشعل جهزه (على) ، ثم رد على (الزين) :

— المسافة بين بلادنا وبينهم من هذا الطريق مسيرة أربعة أيام يا (زين) .. لا تزال أماننا ثلاثة إذن .

— أرجو ألا ترهقك الرحلة يا شيخ (عبد الحميد) .

ابتسم الشيخ ، وهو يقول :

— لا تظن أن عظامي ولحمي يتهالكان سريعًا يا ولدى ، فقد أخذنا حقهما من الرعاية في نشأتي كي يتجلدا معي فيما أنا عليه الآن .

فجأة انتفض (على) وقام يركض إلى خارج الكهف ساحبًا سيفه فتبعه بتلقائية كل من (الزين) مسرعًا والشيخ (عبد الحميد) ليجداه ممسكًا بتلابيب شخص غريب بينما يركض آخر مبتعدًا فلحقه (الزين) عبر الصخور الوعرة وأدخلاهما الكهف .. وقف (الزين) أمامهما وهما

ملقیان أرضاً بینما خرج (علی) یبحث عن البعیر التي نقلتهما لیضمهما
إلی جیادهم ، ولما عاد إلی الکھف کان أحدهما یقول كأنما یجیب علی
سؤال وجه إلیه :

— أنا (زعیر) .. أرجوكم لا تؤذونا .

* * *

٤ - سانتور السفاح ..

خرج قائد جيوش الغرب مبكرًا بزيه الحربى متجهًا إلى دار أحد أصدقائه ، دق الباب ودخل عندما فُتح له ، وبعد التحيات المتبادلة سأل صاحبه :

— ماذا يقول الناس فى موت الإمبراطور وتقلد ابنه الحكم ؟

أجابه الصديق بسخرية :

— ألا تعلم ما يقولون يا قائد الجيوش ؟

فهم قائد الجيوش تلميح صاحبه فرد بعنف :

— طوال الوقت وأنا خارج الحدود لحفظ أمن البلاد ، أو فى قصر الإمبراطور لتلقى الأوامر .. أى إننى لا أتكبر على الشعب بابتعادى عنهم وعدم معرفتى بما يدور بينهم يا ... يا صديقى .

— لا بأس يا قائد الجيوش ، ولكن ما سأخبرك به لم يصل للإمبراطور قط .. وأنا على دراية بهذا .

ظل قائد الجيوش على صمته ، وهو يتابع الكلمات تخرج من بين شفقى صاحبه الذى مال عليه واستطرد كأنما يهمس :

— يقولون إن الولد قتل أباه ليحل محله .. وضع له سُمًا أحضره له صاحبه فى الدواء الذى كان يتعاطاه الإمبراطور ، بعدما أصابته وعكة أرقدته يومين .. صاحبه هذا أصبح وزيرًا للبلاد .

— وهل اشترك الطبيب فى هذه المؤامرة ؟

اعتدل صديقه وهو يقول بنبرة صوته التقليدية :

— لا نظن .. ولا ننفي هذا أيضًا ، الشك يحوم حول الابن أكثر من غيره ، والذي هو صاحب المصلحة الأولى في قتل أبيه لتولى الحكم بعده .
— أى إنه لا إثبات للتهمة على الولد .

— وهل يمكن لأى فرد إثبات تهمة على حاكم يا قائد الجيوش ؟!

قالها بسخرية قام بعدها القائد غاضبًا يتجه نحو الباب ، وهو يقول :

— الأيام ستثبت كل شيء يا صاحبي .. فليتحدث الناس بما يشاءون ، ولكن ما دامت الحقيقة لم تظهر فأنا مطيع لأوامر الإمبراطور الجديد .. إلى اللقاء .

خرج وصوت صديقه يعلو قائلاً :

— لا نار بدون شرر يا قائد الجيوش .. حظًا سعيدًا .

بعد مسيرة ثلثي النهار وجد (الزين) نفسه ورفيقه أمام بوابة مفتوحة لمدينة تدب الحياة داخل أسوارها ويعلو فيها الضجيج ، أخرج الشيخ (عبد الحميد) خرائطه ينظر فيها قبل أن يقول متعجبًا :

— لا وجود لهذا المكان على أية خريطة .. لا شك أنها حديثة جدًا ، وربما منذ عامين أو أقل .

— هذا غريب .. فلندخلها ونختبر كرم أهلها ، قد نحتاج للمبيت عندهم .

دلفوا من البوابة دون أن يلفت انتباه أى من أهل المدينة دخول أغراب

عليهم ، وكانت هذه ملحوظة أبداهـا (الزين) لصاحبيه .. استمروا في سيرهم بتمهل حتى وجدوا جماعة من الناس ملتفين حول شىء ما ، نزل (الزين) عن جواده واتجه يخترق الجمع ليجد شابة مليحة الوجه طويلة الشعر جالسة على وسادة .. نائرة من حولها أصدافاً وأشياء أخرى لم يتبينها (الزين) ، استنتج من أحاديث المحيطين به أنها تقرأ لهم الطالع ، ابتسم مستهزئاً من سذاجتهم ورجع ليحكى ما رآه للشيخ (عبد الحميد) و(على التوحيدى) الذى علق بقوله :

— عرافة ؟ أما زال هناك من يؤمن بمثل هذه الخرافات ؟!

— من الذى يتحدث عن الخرافات هنا ؟؟

قالها كهـل عابر بصوت رخيم ، فاتجهت أبصار الثلاثة إليه قبل أن يقول الشيخ وهو يشير بيده ناحية العرافة :

— أهل هذه المدينة يلتفون حول عرافة تجهل الغيب .

ابتسم الرجل المعجوز المتكى على عصاه دون أن ينظر ناحية ما أشار إليه الشيخ ، ثم قال :

— هذه أهون الأحداث بالنسبة للأغراب أمثالكم ، وقد اعتدنا مثل ردة الفعل هذه على مر السنين .

— السنين ؟!

قالها (على) و(الزين) بصوت واحد ودرجة دهشة واحدة ، وهم ينظرون إلى ردة فعل الشيخ (عبد الحميد) الذى سأل :

— أية سنين تلك التى تتحدث عنها ؟ هذه المدينة لم تكن هنا قبل عامين أو أقل .

ظل العجوز على ابتسامته وهدوئه :

— ما الذى عبر بكم من هذا الطريق ؟ إن قلائل فقط يعرفونه ، وهناك من يتوهون فيسلكونه .

أجابه الشيخ وقد أدرك تجاهل الكهل إجابة السؤال :

— لقد سلكْتُ هذا الطريق منذ فترة ليست بطويلة ، وسجلته في خريطتى هذه .

وأبرز له الخريطة فتناولها الرجل ونظر ، ثم قلبها بين يديه ، وقال بعدها :

— لا أفهم هذه الخطوط ولا المصطلح الذى استخدمته ، لكن على أية حال نحن هنا منذ آلاف السنين .. هكذا يقول تاريخنا ، وما خرجنا من هذه المدينة قط .

ازدادت الدهشة خاصة على وجه الشيخ (عبد الحميد) ، بينما (الزين) يتطلع كل فينة إلى الحشد الملتف حول العرافة ، ثم قال الشيخ بعد أن نزل عن جواده :

— ما اسم هذه المدينة ؟ وأى حاكم تتبع ؟

— إنها مدينة الأساطير .. ويحكمها تاريخنا أيها الشيخ الغريب .

وازداد تعجبهم إلى أقصى حد .

— منذ متى تتبعوننا ؟ وما الذى دفعكم لذلك ؟

هكذا سأل (على) (زعيتر) فى الكهف ، أخذ (زعيتر) يدور بعينه فى وجوههم قبل أن يجيب :

— نتبعكم منذ تخطيطت الجبال على حدود بلادكم ، بأمر من (سانتور)
العظيم .

— السفاح ؟!!

قالتا (الزين) بدهشة فالتفت إليه (زعير) وقال بإصرار :

— بل (سانتور) العظيم أيها الشاب الفتي .

سأله الشيخ (عبد الحميد) :

— ولماذا يرغب (سانتور) في معرفة وجهتنا ؟ ثم لماذا تطيعونه
وتعرضون أنفسكم لمثل هذا الموقف ؟

— أمرنا سيدى (سانتور) بتتبعكم ومعرفة أين تستقرون ، ثم نعود
لنخبره أو نرسل إليه برسالة لو زادت مدة تتبعنا لكم على ثلاثة أيام .

قالتا (زعير) للشيخ الذى أكمل حوارهما سائلاً :

— لماذا تطيعونه وأنتم تعلمون الخطر الذى ربما يقابلكم ؟

— لا أحد يرفض أمراً لسيدى (سانتور) ، كما أننا نريد مثل هذه
الأمر أيها الشيخ العجوز ، وهذا عملنا .

شعر (الزين) بشيء من الثقة يعود لنفس الأسيرين ، فأخرج سيفه
ولوح به أمام وجهيهما وهو يسأل ساخرًا :

— وماذا تجدون أيضًا غير التتبع يا هذا ؟

أفلحت لعبته في زعزعة تماسك الرجلين ، ثم قال (زعير) :

— نحن مقتفيا أثر : ويجب ألا يلحظ تتبعنا أحد ، لولا هذا الغبي أسقط
حصاة صغيرة ما كان لها أن تلفت انتباهكم أبدًا .

أخرج (على) سيفه بدوره وهو يلوح به أمام الآخر .

— وهل هذا (الغي) أخرس يا ترى ؟

— بل أستطيع التحدث أيها الرشيق .. وقتما تريد .

قالها بجبن واضح ، ثم قرر (الزين) تقييدهما وحجزهما بين الصخور خارج الكهف لبعض الوقت ، وعاد ليتناقشا في أمرهما .. قال الشيخ :

— لم أنتبه ولا (الزين) للحصاة التي وشت بوجودهما يا (على) .

— بل هي رائحتهما يا شيخ ، الأبلهان يستخدمان عطراً برائحة الورود ربما للتضليل ، وأنت كما لاحظت لا وجود لورود حول هذا الكهف .

— هل رأيت ما نادوا به كلاً منا يا شيخ ؟

قالها (الزين) باهتمام فأجابه الشيخ :

— ربما لا يعرفان أسماءنا فلقبونا بأبرز صفاتنا التي بدت لهم .

— وصفاني بالرشيق .

قالها (على) وهو ينظر بجانب عينيه لـ (الزين) ، فابتسم الشيخ ، ثم قال :

— ما يقلقنا الآن هو سرقة (سانتور) لمخطوطاتي من قبل ، ثم يرسل من يتبعنا .. في نفس هذا الجرم شيء لا بد من معرفته .

— يمكننا إجبار تابعيه على كشف ما ينتويه .

— لا يعرفان شيئاً مما يجول بنفسه يا (زين) ، إن أمثاله لا يأمنون غير أنفسهم على أسرارهم .

— ماذا نصنع بهما إذن يا شيخ ؟

فكر الشيخ (عبد الحميد) قليلاً ، ثم قال :

— أحضرهما يا (على) .

خرج (على) ليجدهما مقيدين يدوران بأعينهما في وجوه الجميع ، فبدا الهدوء على وجه الشيخ ورسم (الزين) الغضب على ملامحه بينما اصطنع (على) السخرية فأقلقتهما هذه التعبيرات مما بث شيئاً من الفزع في داخلهما :

— ماذا تعرفان عن (سانتور) ؟ ومنذ متى تعملان تحت إمرته ؟

ظل الرجلان على صمتهما قبل أن يمسك (على) سيفه المغمد ، وهو يقول لرفيق (زعيتر) :

— لا بد أنك عدت للبكامة مرة أخرى يا هذا .

أجاب الرجل بسرعة ورعب :

— إننا معه منذ أعوام أيها الرشيق ، هو قائد سابق لجيش أحد البلاد التي لا نعرفها ، وعُرف عنه القوة والبأس في قيادة جنوده والحنكة في كسب المعارك والقسوة في كل تعامله مع الصديق والعدو .

— إن ما تقوله خطير .. ماذا رأيت من أفعاله تدلل به على ما قلت ؟

— حكى أنه كان يوماً في طريقه بطول النهر وسيوف جنوده مشهرة ليقترحم مدينة متمردة على سلطانها ، فكُلف (سانتور) العظيم بالسيطرة على أهلها وردعهم عن تمردهم ، وكان مما أمر أن يمتنع جنوده عن الشرب من ماء النهر أو الأكل من الزرع المنتشر على ضفته ، وتوعد من

یخالف أمره بالقتل ولو بعد عشر سنين .. ولما طال الوقت كان قد انتاب الجنود شعور بالإفْهَاق يتسلل إلى أجسادهم وبالجوع والعطش يقلص أمعاءهم .. فسولت لأحدهم نفسه أن یخالف الأمر وكان فی الصف الأخير من المسيرة ، فتباطأ قليلاً واغترف بيده شربة ماء ، ثم اغترف واحدة أخرى لم تروه لكنه تصبر بها على الجوع والعطش .

صمت الرجل قليلاً يلتقط أنفاسه وهو ينظر إلى (زعيتر) ، ثم إلى الشيخ والآخرين ، وبعدها أكمل بينما (على) يتنقل بين مدخل الكهف ودخله كأنما يراقب المكان .

* * *

قبل أسوار المدينة توقف (سانتور) ليرسل برجلين يدوران حول السور لاستطلاع المكان ، ولما أتتا مهمتهما ، نادى الرجل الذى اغترف من ماء النهر ، فتقدم الرجل مترجلاً ليمثل أمامه ، سأله (سانتور) :

— هل ترغب فى أن تكون بطلاً يفخر به السلطان ؟

أجاب الرجل بفخر :

— نعم يا قائد الجيوش .

ابتسم (سانتور) بحبث لم يلحظه الجندى ، وقال :

— افتح بوابة المدينة لندخل .

سأله الجندى بذعر :

— كيف يا سيدى ؟

أجابه (سانتور) بشراسة :

— ألم تشرب من ماء النهر ؟ إن هذا الماء يبعث بقوة ألف رجل في كل شربة منه ، فكم شربت ؟

قال بانكسار :

— عرفتین .

— إذن فانت بقوة ألفى رجل ، فمن غيرك يمكنه التغلب على حراس هذا الباب العملاق وفتحه ؟ لو لم تكن شربت من النهر لفتحت الباب أنا لأننى أقواكم ألسْتُ كذلك ؟

— بلى يا عظمة القائد .

— ولكنك اكتسبت قوة كبيرة الآن .

ثم أردف صائحًا :

— هيا .

ولَّى الرجل ظهره لـ (سانتور) غير مقتنع بوجود مثل هذه القوة بداخله ، واتجه ناحية البوابة بينما تحرك القائد بجيشه حول المدينة ليصبح خلفها لا أمامها .

— وهكذا أيها الرشيق قُتل الجندى المسكين عندما كان يتسلل داخل المدينة لفتح الباب ، بينما انقض (سانتور) وجنوده على أهلها من فوق سورها الخلفى وقتلوا من قتلوا حتى استسلم الباقون .

تبادل الشيخ و (الزين) و (على) نظرات فيما بينهم قبل أن يسأل (الزين) :

— وكيف أصبح السفاح هكذا ؟ أعنى لصاً وقاطع طريق بعدما كان قائد جيوش ؟

نظر الرجل لرفيقه الذى أجاب :

— لم يكتف - حسبما سمعنا - (سانتور) العظيم بقيادة الجيوش ، وكان يطمح في حكم البلاد كلها .. فعلم السلطان بأمره وعزله لينفيه بعد ذلك خارج الحدود .. لذا بدأ يجمع المجرمين وقطاعى الطرق ليكون منهم جيشاً يقتحم به الدولة ويقتل السلطان ثم يستولى على العرش ، ولما كان رجل جيش ومن جمعهم لا خبرة لهم بأمر القتال المنظم ، والكثير منهم لا يعرفون كيفية المبارزة ، فقد بدأ في تدريبهم وتعليمهم فنون القتال ، لكنه كان في حاجة إلى موارد الحياة من زاد وغيره .. فاقترحوا عليه ممارسة أعمال اللصوصية ليلاً بعد التدريب نهاراً ، فوافق على أن يجعل الأمر بشكل أكثر تنظيمًا وأقل خطورة .

كان الرجلان يحكيان في وله كأنما يسترجعان ذكريات بطولاهما الشخصية ، وكان (على) لا يزال على تردده بين مدخل الكهف وداخله ، و(الزين) حذرًا من احتمال أية مفاجئة يُقدم عليها أحدهما ، في حين يتابع الشيخ حديثهما بتركيز بالغ قال بعده في توتر :

— وكأنكما تحدثان عن الفارس الحاذق .

— ومن يكون الفارس الحاذق يا شيخ ؟

اصطحب الرجل العجوز كلاً من (عبد الحميد) و(الزين) و(على) وهم يسرون ممسكين بزمام جيادهم في طرقات المدينة ، ثم سأل (الزين) :

- كم عمرك أيها الشيخ العجوز ؟
- عمري أكثر من ستمائة وعشرين عامًا .
- قالها بهدوء استغفر (على) الذى قال :
- ولكنك تبدو أكبر من ذلك بكثير أيها العجوز .
- اشتم الرجل سخرية (على) فى حديثه ، وبرغم ذلك قال بنفس الهدوء :
- لقد تناولت سائلاً يطيل العمر .
- قال (الزين) بسرعة وتلقائية :
- ديننا ينهى الخلود .
- كل الأديان تنفيه يا ولدى .. لا تترك لتلك المصطلحات التى صُبت فى عقلك تمجبر على تفكيرك واستيعابك ..
- قلتُ إنه يطيل العمر ولم أقل يمنح الخلود ، هناك فارق .
- أعلم أيها العجوز .. اختلط على الأمر .. هل أنت من صنع هذا السائل ؟
- كان الشيخ (عبد الحميد) يسير صامتاً يتابع هذه الحوارات ، أجاب العجوز :
- كلا .. ولكن تطوّعت لتجربته على .
- عالم من مدينتنا صنعه ، وقد صنعه من مخلوقات إلهية .
- أعشاب ؟

كان الموضوع قد بدأ يجذب اهتمام (على) و (الشيخ) كثيراً ..
رد الرجل :

— نوع من الأعشاب نادرة الوجود ، استخلص منها المادة الأساسية
للسائل المخلوط بأنواع أخرى ، وبعض المواد مستخرجة من حيوانات
ونحل .

سأل الشيخ (عبد الحميد) باهتمام :

— ما هي تكويناته بالتحديد ؟

— لا أعلم .

كانت عيولهم تحوم في المكان أثناء السير والمخاطبة ، والعديد من
الأشياء كانت تبدو غريبة عليهم ولكنهم يتجاوزونها .. ربما لانجذابهم
بالحديث مع الرجل العجوز :

— لماذا لم يسجل هذا العالم طريقة إعدادها من أجل إفادة الآخرين ؟

— لم يعلم أنها نجحت .. فطوال ستة أشهر من متابعة تأثيرها على
لاحظ أنني مازلت أتقدم في العمر ، فرجع إلى تجاربه مرة أخرى دون أن
يصل لنتيجة .

سأله (الزين) :

— حيرتني يا شيخ .. كيف إذن أفادتك المادة وهي لم تفعل ؟

كان الجميع قد وصل إلى مكان مهده ضيق تقل فيه المارة ، تنتشر في
نهايته على مرمى البصر أعمدة كثيرة تجذب الانتباه بأشكالها الغريبة ،
فجلس العجوز على صخرة موجهًا كلامه إلى (الزين) :

— لم تفلح في وقتها ، لكنها بدأت مفعولها بعد ما يقرب من سبع سنوات .. وقتها كان العالم قد مات .

قال (على) :

— لا شك أنك سعيد بهذا العمر .

— ليس سيئاً أن تستمر في الحياة ، ولكن السيئ أن تكون عجوزاً زاهداً في متعتها .

ثم شخص ببصره قليلاً قبل أن يكمل :

— وأن تدفن أحباءك عبر الأجيال .. لتشعر بالوحدة .

٥ - الصولجان ..

مثل قائد جيوش الغرب بين يدي إمبراطوره الجديد الذى قال :

— ماذا رأيت فى أمر بلاد الشرق يا قائد الجيوش ؟

كان الوزير — صديق الإمبراطور — يقف عن يمينه ، فبدل قائد الجيوش نظراته بينهما قبل أن يقول :

— لو أنه لا بديل عن الحرب لصالح البلاد فأنا رهن إشارتك سيدى الإمبراطور .

ابتسم الشاب مزهواً وهو ينظر بطرف عين لوزيره ، الذى كادت ابتسامته الخبيثة تشق شفثيه ، قبل أن يستطرد قائد الجيوش سائلاً :

— فمتى تأمر بالرحيل يا سيدى ؟

— أتمن حدود الدولة وأخلف وراءك من يقدر على ملء غيابك ، وليكن من ستصعبه من الجنود معك فى هذه المهمة على أتم استعداد عند الفجر .

أوماً القائد متفهماً وتراجع بظهره كى ينصرف ، ولكن استوقفه الإمبراطور قائلاً :

— أصحب معك مساعدك الأمين ، وجهاز خطة سريعة للقضاء على الملك وأعوانه فى بلاد الشرق .. ثم ابعث لى فور انتهائك منهم لأرسل لك من يعمل على استقرار الأمور وحكم الولاية الجديدة .

صرف وجهه عنه وهو يقول :

— أمر مولاي الإمبراطور .

وخرج من الديوان .

كان (الزين) غافياً والآخرين نائمين داخل الكهف عندما تناهى إلى سمعه صوت حوافر تضرب الأرض ، ففتح عينيه على ضوء الصباح البادى ووقف ينظر حتى ظهرت جياد كثيرة عليها رجال ما إن نحوه حتى أشهروا سيوفهم ، فسحب سيفه بدوره وهو يوقظ رفيقه ، فاستيقظ الرجلان المقيدان أيضاً ، ثم سحب بيده الأخرى مشعلاً من النار الموقدة وسط الكهف ، وما لبث أن اقترب القادمون حتى لمح (على) سوطاً في جراب من تبدو عليه أمارات القيادة ، وصاح كل من (زعيتر) ورفيقه وهما يسقطان على ركة واحدة يحنان رأسيهما :

— (سانتور) العظيم .

صاح (الزين) بالقادم في غضب :

— أنت السفاح إذن .

تجاهله (سانتور) وهو يتفحص المكان ويتفحص وجهى رجله المقيدين ثم يشير بيده لمن يتبعه مباشرة كي يتقدم مترجلاً نحو (زعيتر) ورفيقه ، لولا أن صاح (على) موجهاً سيفه لوجه الرجل :

— لا يقترب أيكم من هنا .

وضع (الزين) يده على سيف (على) يخفضه ، دون أن يشيح ببصره عن (سانتور) الذى قال بصوت رخيم :

— شاب حکیم .

ثم وجه حديثه مكملًا لتابعه :

— حررهما من القيود .

شرع الرجل ينفذ الأمر في حين قال الشيخ (عبد الحميد) سائلًا :

— ماذا تريد منا أيها الغريب ؟

رد (سانتور) ساخرًا :

— الآن أصبحت غريبًا يا شيخ (عبد الحميد) ؟

قطب الشيخ حاجبيه ، وهو يرد :

— لم أظنك ستعرفني أيها السفاح .

ترجل (سانتور) عن حصانه ، فبدأ طويلًا عريض المنكبين بلحية منمقة وعينين مكحلتين .. وضع يده على سوطه في الجراب حول خاصرته متقدمًا نحو الشيخ (عبد الحميد) .. ثم قال وقد اختلطت أنفاسه بأنفاس الشيخ :

— لقد تغيرت ملامحك كثيرًا يا (عبد الحميد) ، ولكنني أعرفك لسحبك هذين الصبيين معك في كل مكان .

كان كلٌّ من (على) و (الزين) متحفزين لأي حركة غادرة يُقدم عليها السفاح وهو على هذه المقربة من الشيخ ، لكنه بعد جملة المهينة عاد إلى رجائه الذين انضم إليهم (زعير) وصاحبه .. ثم صاح أمرًا :

— كبلوا هؤلاء الثلاثة وارفعوهم على جياد لنا .. ثم ابحتوا عن جيادهم وأطلقوها .

تردد (على) في الدفاع عن نفسه وصاحبيه فوجه نظراته إلى (الزين)
والشيخ الذى أوما لهما بما يعنى « ارضخا فعددهم أكثر منكما بكثير جدًّا » ،
وبذا استسلما على مضض وهم يوثقون قيودهم ، ثم أمر (سانتور)
الرجل المكلف بتقييد الشيخ :

— خفف عنه القيد ، فهو رجل عجوز لن يتحمل خشونة الحبل .
وأخذ يقهقه بصوت عالٍ والشمس تلقى بحرارتها في كل مكان .. ثم
اعتلى صهوة جواده .

* * *

أشار (الزين) بيده ناحية الأعمدة وهو يسأل الرجل العجوز :
— ما هذه يا شيخ ؟
نظر الرجل حيث يشير (الزين) وكذا (على) والشيخ (عبد الحميد) :
— تقصد الأشكال على الأعمدة ؟ إنها تصميمات هندسية .
(على) :

— إنها بديعة .

— إنه علم .

الشيخ (عبد الحميد) :

— علم الهندسة تقصد ؟ نعرفه ، لكن لم نر مثل هذا من قبل .

— اتبعونى .

قالها العجوز وهو ينهض باتجاه الأعمدة ، ثم وقفوا أمام أحدها ينظرون

عن قرب :

— هذا يسمى « الشكل ذا الأضلاع الخمسة » .. وذاك يدعى « الشكل ذا الأضلاع الأربعة .. »

قالها الرجل وهو يشير بسبابته إلى النقوش الموجودة على العمود ، فقال (على) :

— إن من نحتها لشديد الحرفية .

— لم ينحتها بشرى .

قالها العجوز وسكت يتابع ردة فعلهم ، وابتسم عندما أصابت جملة هدفها وبدأت الدهشة على وجوههم .. ثم استطرد استجابة لحثهم الصامت على الإدلاء بالمزيد :

— نقشتها أدوات وُجدت منذ آلاف السنين عرفها الأجداد أو اخترعوها ، لكنها ضاعت عبر الزمن .. هكذا يقول التاريخ أيها السادة .. اتبعوني .

سار مرة أخرى موليًّا ظهره للممر الضيق ، وهم يتبعونه حتى كهف وحيد على ارتفاع منخفض في جبل صغير الحجم ، وقف أمامه قبل أن يقول :

— هذا مكان مقدس ، فلتحذروا تدنيسه .

لم يفهم أيهم مغزى ما قاله بلهجة عميقة ، لكنهم تبعوه إلى الداخل ، وبدأ عليهم الانبهار بطلاء الذهب البراق الذى يغطى جدار الكهف ، وأرضيته المصنوعة من مربعات مصقولة على ضفتيها مشاعل أعطت للمكان هيبة وصلت أعماقهم .. وكان العرش :

— هذا هو عرش الحكم ، وذلك الصولجان فوقه شاهد على تاريخنا الغابر ، وهو من يحكمنا .

— لا شك أن شخصاً مهماً في هذه المدينة ، أليس كذلك ؟

— بلى يا بنى .. أنا المستول عن رعاية الصولجان ، مهمة توارثتها عن أبى وأجدادى .

قال (على) مبدئياً ملاحظة :

— ولكن لا يوجد حراس على هذا الكهف .

شعر (الزين) بتوتر الشيخ (عبد الحميد) ، فسأله بحذر :

— ومن يكون الفارس الحاذق يا شيخ ؟

تجاهل (عبد الحميد) سؤال (الزين) واتجه بعينيه وجذعه ناحية (زعيتر) ورفيقه :

— ما الأداة التى يجيد (سانتور) استخدامها أكثر من غيرها ؟

نظرا لبعضهما فى دهشة من السؤال ، ثم قال أحدهما :

— إنه يجيد استخدام السيوف والرماح ويكره الدروع .. لكن أكثر ما يحب استخدامه هو السوط .

— هذا ما كنت أخشاه .. إنه هو .

قالها بشيء من اليأس لم يعتده صاحبه ، سأله (على) بتوتر :

— ماذا هناك يا شيخنا ؟ أهو بهذه الخطورة ؟

— إنه الشخص الأكثر منازلة لى فى المعارك أيام كنت كبير جند جيوش الشرق ، وفى الكثير من هذه المعارك كاد أن يفتك بى لولا القدر الذى اعترضه .. إنه يجيد استخدام كلتا يديه .. السوط بيسراه ، والسيف أو الرمح فى اليد الأخرى .. إنه شخص خطر للغاية .

— لا عليك يا شيخ ، ستمكن من التصدى له .. فأنت أكثر من يعرف قدراتنا .

— إلا مع هذا الرجل .. بعض الأشياء تكون موهبة لا تُعلّم ولا تكتسب .. وإنما تُنمى ، وهذا الرجل يستخدم كلتا يديه بمهارة فائقة .
شحنة من التوتر سرت فى الأجساد الطيبة ، وشيء من الشماتة سرت فى الجسدين الشريرين .. قال (على) :

— الله معنا يا شيخ ، فهو أقوى من كل (سانتور) على الأرض .

— لندعو بذلك يا (على) .. لندعو أن يكون الله معنا دائماً .

ثم صمت برهة قال بعدها :

— من سيتولى الحراسة ؟ أشعر بالتعب وأرغب فى النوم .

رد (الزين) :

— سأتولاها أنا يا شيخ .. نم هانئاً ولا تقلق .

قال (على التوحيدى) :

— أيقظنى عند منتصف الليل أو عندما تمل فأحل مكانك .

ربت (الزين) على كتف صديقه دون رد ، وافترش (على) عباءته فوق الأرض لينام .

كانت الأميرة (سولى) تدور حول عرش والدها الجالس بهدوء يتابعها وهي شاردة ، ثم تروح وتحجى عبر الديوان عدة مرات قبل أن يستوقفها مبتسماً بقوله :

— إنه لسعيد الحظ حتماً .

انتبهت للجملة ، فتوقفت حيث هى تتطلع إلى أبيها قبل أن تسأل :

— من هو سعيد الحظ هذا يا جلالة الملك ؟

أجابها بصوت أبوى حنون :

— ذلك الذى تجوين الديوان من أجل قلقك عليه .

احمر وجهها خجلاً لهذا التلميح الماكر ، ثم اتجهت إلى كرسيها بجوار العرش وهى تقول :

— لا أعى مقصدك بالتحديد يا أبت .

— أعنى أنك تشغلين نفسك بالتفكير بى كثيراً .

ثم مال نحوها وهو يغمز بخبائة جديدة :

— أليس كذلك ؟؟

اشتدت حمرة وجنتيها فى حين دخل الحاجب مسرعاً يقول بعجلة :

— كبير الجند يطلب مقابلتك لأمر عاجل يا مولاي .

لمح خطورة الأمر فى نبرة الحاجب فأمره :

— ليدخل على الفور إذن .

وقامت الأميرة تستأذن فى الانصراف ، لكن طلب منها الملك أن تبقى

لتلقى هذا الأمر الخطير معه .. فاستجابت ، ودخل كبير الجند مهرولاً
يسبقه كلامه بتوتر :

— جيوش الغرب تتجه نحونا يا مولای .

— مرة أخرى ؟ خلال هذه المدة القصيرة ؟

— هذه المرة بضراوة .. (عين الدولة) يتوجس خيفة من هيئة قدومهم
المفزعة .

أخذ الملك يتفحص ملامح وجه كبير جنده المتجههم ، والأميرة تدور
برأسها عشرات الأسئلة ، لكن الوضع لا يسمح بإلقاء أى منها الآن ..
قال الملك :

— قم بتدابيرك الأمنية في مثل هذه الظروف ، كم من الوقت يلزمهم
للوصول إلى المدينة ؟

— قبل غروب الشمس .

— وأظنهم سينتظرون حتى الفجر كي يقتحموا المدينة ، أليس كذلك ؟

— كلا يا سيدى ، وإلا لحسبوا الزمن بحيث يصلون عند منتصف الليل
فيرتاحون قليلاً ثم يشرعون بالهجوم .. أما طريقة حضورهم في هذا الوقت
تعنى أنهم ينوون الاقتحام مباشرة فور وصولهم .

عاد الملك لتفحصه وتفكيره ، ثم قال :

— هل تتوجس شيئاً ؟

أجابه كبير الجند بحزم :

— علينا افتراض الأسوأ .

— تدبر الأمر إذن .

أحنى الرجل رأسه وهو يتراجع بظهره قائلاً :

— أمر مولاي الملك .

صاح الملك منادياً الحاجب ليعث إليه بكبير العسس ، وبدأ أمام
الأميرة لحظات قلائل لتخرج ما في أعماقها من تساؤلات .

* * *

— الصولجان يحمي نفسه يا بنى ، هو ليس بحاجة لحماية من أحد .

قالها الرجل العجوز ردّاً على (على) ، ثم استطرد :

— كما أنه ليس معرضاً للخطر من قبل أى من سكانها ، فهم يقدسونه
ويؤمنون بأن وجودهم وسلامتهم من وجود وسلامة هذا الصولجان .

— ما اسم هذه المدينة إذن ؟

— لم يكن لها اسم قط .. ولكننا نطلق عليها (بلاد الأساطير) .

— ما اسمك أنت إذن ؟

— لا نحتاج إلى أسماء .. هذه أمور حديث العهد بها كل البشر ، فما
كانت هناك أسماء من قبل .

كاد يجن (على) من حوارهِ مع العجوز بهذا الشكل ، ففواه ظهره ،
مما أجبر (الزين) على جذب انتباه الرجل عن رفيقه كى لا يغضب فسأله :

— هل تميزون بالكرم إذن ؟ نحن بحاجة إلى نوم وراحة .. أشرفت
الشمس على المغيب .

— نحن لا نثق في زائري النهار ، عليكم الخروج ثم العودة عندما يعم الظلام المكان .

أمسك (على) برأسه وسار بضع خطوات بعيداً عن الكهف ، في حين قال الشيخ (عبد الحميد) :

— نشكرك أيها العجوز ، سنفعل كما أوضحت .

ابتسم الرجل وهو يحني رأسه قائلاً :

— لقد سبقكما صديقكما ، فأسرعا للحاق به .

أدرك كل من (الزين) والشيخ (عبد الحميد) أن الرجل يلمح لغضب (على) ، فردا على ابتسامته بمثلها وانطلقا إلى حيث جيادهم ليتجهوا نحو أسوار المدينة ، وامتل (على) صاغراً لرغبة صديقيه حانقاً على تنفيذهما ما أطلق عليه (هُراء) .

* * *

بدا محققاً من ملابسه ، مشدوداً من ذراعيه وقدميه بشكل رأسى إلى عمودين متجاورين ، رقبتة مطأطأة حتى كاد عنقه من الخلف يلامس سقف المكان .. كان وضعاً غير مريح بالمرّة ، ومن تحته قدر كبيرة تغلي بالماء تتصاعد أبخرته عليه في وضعيته هذه .. وسيلة تعذيب جهنمية في بساطتها ، بعد برهة سمع أنين تصدر منه تمتمة ، فأصاخ السمع مخترقاً آلامه وصوت الغليان ليميز صوت (على التوحيدى) :

— هل .. أنت .. على ما يرام .. يا (زين) ؟

جاء الصوت من خلفه ، فرد بصوت لا يقل وهناً :

— لا أظنى .. كذلك .. يا (على) .

— أين .. الشيخ (عبد الحميد) ؟

نَقَلاً بصريهما فى المكان ببطء بحثاً عنه فلم يجدا سوى جدران وأرضية وصخور متناثرة وبقايا دماء وحبال مهترئة ، ثم دخل أحد رجال (سانتور) يقول :

— (سانتور) العظيم يسألكما الدخول .

كان الرجل يدور بينهما يتفحص وجهيهما .. رد (الزين) :

— وهل غلك أن نأبى ؟ فليدخل (سانتورك) العظيم .

واكتفى ، فابتسم الرجل وهم بالخروج من المكان ، ولكن استطرد (الزين) قائلاً :

— أيها الوغد .

توقف الرجل واستدار ناحية (الزين) ورأى ابتسامة واهنة على ركن شفته المنهكة فعاد مكماً طريقه بتجاهل ..

لحظات ودخل (سانتور) يمسك سوطه وخلفه رجلان ، وبدأ الكلام :

— كيف تشعران أيها الفارسان الهمامان ؟

رد (على) بسرعة :

— بأفضل منك أيها السفاح .

ابتسم (سانتور) ، ثم ضحك مجلجلاً وقال :

— وأنت أيها الفارس الملك المنتظر ؟

شعر (الزین) بدهشة حقيقية لجملة السفاح .. ثم شعر بقوة الغضب
تسرى فيه دفعة واحدة ونسى كل آلامه وهو يسأل :

— أين الشيخ (عبد الحميد) أيها الوقح ؟ ماذا ألم به ؟

سرت نفس القوة بعروق (على) لما انتبه لمقولة صديقه ، وقطَّب
حاجبيه مصغيًا السمع لما سيجيب به (سانتور) الذى قال :

— لا تقلق عليه يا فتى .. فهو ضيفى معزًا .

ازداد انعقاد حاجبي (على) ، و (الزین) يقول :

— أمثلما نحن معرزان هنا ؟

فهقه (سانتور) ، وهو يجيب :

— بل خير من ذلك .. فالفارص (عبد الحميد) له عندى مكانة خاصة ،
مكانة تفوق ما تتصوره يا فتى .

شعر (الزین) وصديقه بالقلق لهذا الرد ، وكاد (الزین) يكمل
استفساراته ، لكن انقلبت سحنة السفاح فجأة وقطب حاجبيه بغضب
واقترب من جسد (الزین) المعلق ، وهو يسأله :

— تحت أى أرض يوجد السائل الأسود أيها الشاب ؟

الفاكهة مدلاة من الأشجار ، والأميرة (سولى) تجوب تحتها تتبعها
وصيفتها بقلق .. مدت الأميرة يدها وقطفت ثمرة نضجت ، أخذت تقضم
منها وهى شاردة تحملىق فى لون الثمرة حينًا وفى الأرض حينًا .. أخذت
تفكر فى حوار والدها معها ، هل يعنى ما قال حقًا ؟ أم إنه يلتمح إلى شيء

ما ؟ هل لاحظ إعجابها بـ (الزين) ؟ هل لاحظ (الزين) نفسه هذا الإعجاب ؟ نظرًا له .. متابعتها لكلامه ، تداعت أفكارها إلى الحرب الموشكة حتى صدر في المكان صوت زججرة ، فانفلتت الشجرة من يدها مع صرخة جزعة أطلقتها الوصيفة ، اتجهت الأميرة ببصرها نحو الصوت لتجد ذئبًا رماديًا بارزة أنيابه ينظر لها بعينين لامعتين ، وضعت يدها على فمها لتكتم صرخة تكاد تفلت منها ، بينما الذئب يقترب بهدوء ، ثم قرر الارتكاز على ركبتيه استعدادًا للقفز ، وفجأة أصابه سهم تلاه آخر أعجزه عن الحراك ، والأميرة تمهل في الدماء السائلة حتى سمعت صوت رجل :

— هل أنت بخير يا مولاتي ؟

استدارت باتجاه محدثها لتجد جنديًا يمسك النشابة يمينه وسهمًا حرًا في اليد الأخرى ، أومأت له برأسها فابتسم الجندي ، وهو يقول :

— يبدو أن وصيفتك ليست بالشجاعة التي تمتلكينها .

كان يشير بسهمه تجاه الوصيفة المستندة على جذع شجرة تذرف دموعها ، والجندي يتجه إلى الذئب يتحقق من موته والأميرة تتابعه بعينها حتى عاد إليها يطمئنها :

— لقد مات .. أرسلني الملك ضمن مجموعة أخرى للبحث عنك ، فهل مي بنا إليه كي يطمئن .

اتجهت الأميرة تُعين وصيفتها على النهوض وسارتا مع الجندي باتجاه القصر ، وما إن وقع بصر أبيها عليها حتى سألها بلهفة :

— أين كنت ؟ أنت تعرفين أننا على مشارف حرب وتخرجين من القصر هكذا دون اصطحاب جنود الحراسة ؟

لم ترد الأميرة وهى مطأطئة رأسها فاتجه الملك ناحيتها ورفع رأسها
ليرى دموعًا ترحف من عينيها ، فسألها بتأثر :

— ماذا بك ؟

— لقد كاد يفترسنا ذئب ، لولا أن قتله الجندى الذى وجدنا .

ضمها إلى صدره وهو يقول :

لا بأس .. لا بأس سنكرم هذا الجندى لإنقاذه إياك ، بل سنكرم كل
الجنود احتفاءً بسلامتك .. ولكن لا تقلقنى عليك مرة أخرى ، يكفينى
ما أحمل من أعباء .

سحبت نفسها من صدر أبيها ونظرت إليه من خلف دموعها ، ثم
أومأت برأسها إيجابًا وانصرفت .

— أين كبير الجند ؟

٦ - السائل الأسود ..

استند الثلاثة إلى صخرة ضخمة قبيل الغروب حتى يجن الليل فيتمكنوا من دخول المدينة العجيبة ليبيتوا بها كما أخبرهم حارس الصولجان ، بينما الجياد معقود حبالها في بعضها .. قال (على) :

— ما أخبار كتفك يا شيخ ؟

تحسس الشيخ (عبد الحميد) كتفه اليمنى ، وهو يقول :

— بخير يا (على) ، إن الضمادة هَوْن الأمر كثيراً .

— لا أصدق أننا أفلتنا من (سانتور) ، إنه كوحوش الأساطير .

— إننى حى حتى الآن لأن رجلاً تلقى رمية سهم بدلاً عنى منذ سنوات بعيدة .

قالها الشيخ (عبد الحميد) وهو شارد بعينه في اتجاه المدينة ، ثم استطرد :

— هذا الرجل كان والد (سانتور) .

اتسعت عينا (الزين) و (على) وهما يحدقان في الشيخ الذى التفت ناحيتهما وبدأ فى الضحك للتعبير المرتسم على وجهيهما ، ثم قال :

— ما بكم ، أهكذا تستقبلان الأمور ؟

شعرا بالخجل وعدلا من وضع عينيهما ، ثم قال (الزين) :

— معذرة يا شيخ ، ولكن جملتك ذكرتنا بجملة قالها السفاح بينما كنا معلقين يغلى من تحتنا قدر الماء .

— ماذا قال يا (زین) ؟

— لما سألتناه عنك قال إنك معزز لأن لك عنده مكانة خاصة ، ولم نفهم الجملة سوى الآن ، هل كان ينوى الانتقام لأبيه ؟

ابتسم الشيخ (عبد الحميد) وبدأ يحكى :

— كنا فى معركة مع جيش أقاصى الشرق دفاعًا عن بلادنا ، لم تكن وقتها بهذه المساحة الشاسعة ، كانت هناك دولة صغيرة على حدودنا — وقتها — تساندنا خشية أن ينتصر علينا جيش العدو فيزحف عليهم بعدها .. كان قائد جيش هذه الدولة الصديقة هو والد (سانتور) ، كان فارسًا شجاعًا وكثير الإعجاب بمهارتى .. لمح أثناء المعركة وغداً من جيش العدو بهم بإطلاق سهم على ظهري بينما كنت منهمكًا فى قتال ثلاثة منهم بسيفي ، فلم يجد سوى أن يلقي بنفسه — بعد أن ترك سيفه مغمداً فى قلب أحدهم — ليحول بيني وبين السهم الذى أصابه فى مقتل .. ولما انتبهت للأمر بعد فراغى من أقاتلهم همس لى بفخر أنه أنقذ فارسًا يتفوق عليه فى مهاراته .

صمت الشيخ قليلاً ، وضوء الشمس الباقي يتبعهم ، ثم أكمل :

— عرفت عنه فيما بعد كم كان شجاعاً .. وأنه كان أعسر اشتهر بغمد السيف فى قلب عدوه مباشرة بعد مبارزة قصيرة يستخدم فيها الدرع أكثر من السيف بمهارة لافتة .

خرج (على) من انبهاره وسأل الشيخ :

— ورت (سانتور) مهارة أبيه إذن ، وأضاف إليها مهارات أخرى .

أليس كذلك يا شيخ ؟

— بلى يا (على) ، تلقى (سانتور) تدريبات فائقة المهارة أثناء كان جندياً في جيش الدولة التي حكى عنها (زعيتر) على أيدي مقاتل من الغرب اشتهر بمهارته في استخدام السوط ، جذبته مهارة (سانتور) المتفوقة على زملائه ، والتي كانت نتاج تدريبات والده له ، فخصه بتدريبات شاقة علمه فيها كل خبرته عن فنون استخدام السوط ، ولنصف مهارته السابقة في استخدام الدرع والسيف من أبيه ، وأيضاً قدرته على استخدام كلتا يديه .

أكمل (الزين) :

— وقلب شر ناقم ، وعقل شيطان .

ابتسم الشيخ لتعابير الاشتمزاز على وجه (الزين) ، ثم قال :

— ولهذا سُمى بالفارس الحاذق ، فهو لا يقع في فخاخ الآخرين بسهولة ، وإن حدث فإنه يتمكن من إنقاذ نفسه بسرعة .. أو لم يكن وقت دخول مدينة الأعاجيب هذه ؟

أى سائل تعنى ؟

أمسك (سانتور) بشعر (على) وجذبه بقسوة ، ثم قال بشراسة :

— يمكننى تمزيق أطرافك على مهل حتى تخبرنى بما أريد ، فلا داعى للمماطلة أو التحاذى .

صاح (الزين) :

— سأجعل منك تُتفاً صغيرة لو آذيته أو الشيخ (عبد الحميد) .. نحن لا نعرف عما تتحدث .

— السائل الأسود الذى يحترق بسرعة خرافية فور إشعاله ليصل فى لمح البصر من أوله إلى آخره ولو على مسيرة يومين .. أين يوجد هذا السائل ؟

كان رجل (سانتور) يقف على مدخل المكان بينما يصيح سيده فى الأسيرين عندما ميز بأذنه حركة خافتة من خلفه ، فاستدار شاهراً سيفه ليجد الشيخ (عبد الحميد) يزحف باتجاهه متمتماً :

— إنهما لا يعرفان شيئاً عن الأمر يا (سانتور) ، لا شأن لهما بهذا السائل .

تردد الحارس بين سيده والشيخ لا يدري ما يفعل حتى اقترب (سانتور) يعين الشيخ على النهوض بقسوة ويصيح به مقرباً أنفاسه من وجهه :

— أخبرنى أنت إذن أيها العالم الفذ .

أجاب الشيخ (عبد الحميد) يافهاك :

— ولا أنا أدري أين يوجد هذا السائل .

— ألقاه (سانتور) بعنف ليصطدم بالجدار ، و (الزين) يحاول التخلص عبثاً من قيوده وكذا (على) الذى صاح :

— ما هذه الحماقة أيها الوغد ، ألا تعرف كيف تعامل شيخاً ؟

أخرج (السفاح) سيفه وخدش به فخذه (على) لتزيد من تمزق ملابسه ، ولتنزف دماؤه بهيئة خيط أحمر رفيع دون أن يثن فيما اصطكت أسنانه بشدة ، وقال :

— ماذا نتوقع من سفاح غير هذه الأفعال ؟

— إنك توقد نار غضبي أكثر .

رد (الزين) بسرعة :

— لأنك لا تستطيع إيذاء سوى العجائز والمقيدين .

ظل (سانتور) على غضبه يحدق في (الزين) بعض الوقت وهو يقبض على سيفه بقوة أكبر ، ثم بدأت تنفك تجاعيد غضبه رويدًا رويدًا ، وبدأ جسده في الاسترخاء وهو يتبسم قائلاً :

— أعلم أنني أكثر منك مهارة أيها الفتى ، ولكني لن أنزع قيودك رغم محاولتك الذكية .. فانا لن أضيع وقتي في صراع سخيف مع شاب متحمس .

ثم اتجه ببصره إلى الشيخ (عبد الحميد) الذى كان يتابع الموقف بوهن ، وسأله :

— أين الزيت الأسود يا (عبد الحميد) ؟ تحت أى أرض يوجد ؟

وأجابه الشيخ بنظرات هادئة ، وصمت مطبق .

دلف الشيخ (عبد الحميد) و (الزين) و (على) مدينة الأساطير ليجدوا قناديل كثيرة ممتدة على جانبي الطريق الممهّد وكل منهم تدور عيناه في المكان بحثًا عن العجوز حارس الصولجان ، لكن هذه المرة لاحظوا نظرات الناس المشدوهين متجهة نحوهم ، ثم اقترب أحدهم مبتسمًا :

— مرحبًا بالفرسان .. هل تبحثون عن مكان للمبيت ؟

لم يكن الأمر بالتجاهل الذى لاقوه نهاراً قط ، فأنار هذا حيرتهم
وربيتهم معاً .. رد (الزين) :

— نبحت عن صديقنا حارس الصولجان أيها الرجل الطيب .

— هو عند الكهف المقدس أيها الغريب الطيب ، سأرشدكم إليه .

كانوا فى حاجة لمرشد فى ذلك الظلام ، ثم وصلا بعد فترة حيث يرقد
الشيخ أمام الكهف ، فرحب بهم والمرشد يقول :

— لقد جذبت أضواء القناديل ثلاثة من الفرسان أيها الحارس أبدا ،
فهل ترى منهم الفارس المنتظر ؟

— سنرى يا صديقى ، سيظهر كل شيء فى أوانه .

قالها الشيخ بهدوئه الذى جعل (على) يسترجع حوارات النهار ويعود
لشعوره بالاستفزاز من هذا الرجل ، أخرجه من خواطره (الزين) بعدما
رحل المرشد :

— ماذا يقصد ذلك الرجل بما قال أيها الحارس أبدا ؟

نظر (على) إلى (الزين) بلوم لتكراره جملة المرشد للحارس غير
المفهومة لهم ، لكن لم يلاحظ (الزين) هذه النظرة فى حين أجاب الرجل :

— إننا ننتظر الفارس الغائب منذ أعوام نضىء له القناديل ليلاً كي
يهتدى إلى الطريق لنا هنا .. هنا بلاده أبدا .

لم يتمالك (على) نفسه فقال بسخريته الغاضبة :

— هل كلمة (أبدا) هذه عادة ليلية عندكم ؟

رد الحارس العجوز بهدوئه :

— لا تسخر منا ومن كلماتنا أيها الشاب ، فهذا لا يليق بفارس .

علّق الشيخ (عبد الحميد) مبتسمًا :

— لا أظنّ (على) هو الفارس الغائب إذن أيها الحارس .

نظر إليه (على) معاتبًا بصمت بينما ضحك (الزين) ، والعجوز يقول :

— نعم أيها الشيخ الطيب ، أظنّ الفارس الغائب سيأتى فى الوقت المناسب .

جذبت كلمة (الطيب) — المتكررة كثيرًا هذا المساء أيضًا — انتباه (على) ، لكنه آثر تمالك نفسه هذه المرة ، قال (الزين) :

— من هو هذا الفارس ، ولماذا غاب ؟

— إننا لا نعرف كيف هو شكله ، لكننا نعرف أنه سيأتى أيها الشاب .

ركض عبرهم أحد سكان المدينة وهو يصيح :

— لقد سُرقَت صخرة البئر .. سُرقَت صخرة البئر .

فكرر الحارس جملة الراكض بجزع :

— يا إلهى ، لقد سُرقَت صخرة البئر .

وكان هذا أكثر ما لاقاه (على) — حتى الآن — من جنون أهل هذا المكان .

ضربت حوافر جياد جيوش الغرب الأرض باتجاه بلاد الشرق ، وفى

وسطها كان قائدهم يقول لمعاونه بأسى :

— لستُ سعيداً بهذه المهمة ، إن القوم لم يعادونا ، بل وأظهروا سلامة نواياهم ، فكيف نحاربهم ؟!

— إنما أوامر الإمبراطور يا عظمة القائد .

— ما كان يجب أن أنصاع بهذه السهولة ، كان لابد من إقناعه بالعدول عن هذا القرار المتسرع .

قال معاونه بشيء من العصبية :

— قائد بلادنا لابد أن يكون حكيماً يا عظمة القائد ، وهذا القرار جاء بعد حكمة وتروٍّ .

صاح القائد بعصبية :

— أى تروٍّ هذا الذى اتخذته حاكم لم يحض على حكمه يوم واحد ؟

ثم صاح بصوت أعلى بجنوده :

— قفوا جميعاً يا جنود إمبراطورية الغرب .

بدأ كل منهم يجذب لجام جواده انصياعاً لأوامر القائد ، فى حين سحب المساعد سيفه بسرعة وثبته على رقبة قائد الجيوش ، وهو يقول بغضب :

— أمرنى جلالة الإمبراطور أن أتولى قيادة الجيش لو أنك تقاعست عن تنفيذ أوامره ، وأن أعيدك إليه مكبلاً ..

فاعدرنى أيها القائد .. السابق .

لم يتمكن القائد أن يدير رأسه ناحية معاونه بسبب السيف المثبت على عنقه خشية أن يصيبه ، فقال من موضعه :

— لهذا كان قرار الإمبراطور مترويًا يا معاون القائد ، أليس كذلك ؟

تجاهل المساعد الرد على هذا السؤال ، وأمر رجلين من أقرب الجنود إليه بتقييد القائد السابق وتجريده من أدوات القتالية والدرع ، وأرسل به خمسة من الجنود ناحية بلاد الغرب ..

إلى الإمبراطور مباشرة .

تغمر الحرارة ومياه العرق كلاً من (الزين) و (على) ، بينما الشيخ (عبد الحميد) ملقى بجوار الحائط و (سانتور) يحمل سوطه — الذى أبدله مكان السيف — وثبت يده الأخرى على خصره رافعاً رأسه وصدره قائلاً :

— إن هذا السائل سيمكننى من فعل الكثير يا (عبد الحميد) .. سيكون من اليسير على خلع كل الحكام من بلادهم — بعد إثارة بعض القلاقل بها وبأمنها — وضم هذه البلاد جميعاً لدولة بطول الأرض وعرضها تحمل اسمى ، وتنصاع لحكمى .

بدأ يدور فى المكان وهو يضم أصابعه الحرة مستطردًا :

— سأحكم العالم بهذه القبضة ، وأوزع خيرات الأرض على الناس أجمعين .

قال الشيخ وهو يتفحص (سانتور) بملابسه الخضراء وبشرته البيضاء ، والحمرة المحيطة بعينيه المكحلتين ، وشعره المصفف على هيئة خصلات متساوية يتعدى طولها كتفيه بقليل :

— إن من له مثل قلبك وعقلك لا يمكن أن نترك له حكم البشر يا (سانتور) ، الناس في حاجة إلى العدل والرحمة لا إلى أمثالك من السفاحين .

أصاب (سانتور) كتف الشيخ بحركة مفاجئة من سوطه تركت فيه ألماً وجرحاً صغيراً ، قال بعدها :

— لا تثر حفيظتي أيها العجوز ، أخبرني بمكان الزيت فأتركك وهذين لحال سبيلكم .

— حتى لو كنت على دراية بمكانه فلن أخبر به وغداً مثلك .

— أنت لا تتعلم من أخطائك إذن .

وأصابه مرة أخرى في نفس الكتف بالسوط ، وازداد ألم الشيخ ، بينما كان الإنهاك قد نال كثيراً من الشابين المعلقين ..

وخرج (سانتور) آمراً حارسه بالتيقظ والحفاظ على النيران مشتعلة تحت القدر حتى يرجع .

* * *

سأل الشيخ (عبد الحميد) حارس الصولجان باهتمام :

— وماذا عن تلك الصخرة أيها الحارس ؟

— إنها غطاء البئر الذى يبيت فوقها بعد نفادها في نهاية النهار ، فنستيقظ صباحاً لنجدها وقد امتلأت بالماء من جديد ، ومن دون غطاء البئر لن تمتلئ البئر مرة أخرى .

لانت ملامح الشيخ (عبد الحميد) ، و (على) يزداد توترًا من كفته لما يجيش بنفسه حيال هذا الرجل وهذه المدينة ، ولم يعلق (الزين) على الأمر وإن تابع الجميع خطوات الحارس الذى سار فى اتجاهه لم يحتاجوا جهدًا ليعرفوا أنه يؤدى إلى البئر ، حتى وصلوا ليجدوا أناسًا كثيرين ملتفين حول هذه البئر ، بدأ الحارس يخترق الصفوف يتبعه (الزين) بفضول فى حين وقف الشيخ و (على) يتابعان ما يحدث .. بعد فترة جاءهم (الزين) يقول باهتمام :

— إن العرافة تجلس بجوار البئر وقد أخبرتهم أن السارق غريب عن المكان .

صاح (على) :

— تبا ، نحن الأغراب الوحيدون هنا .. سيفتكون بنا الآن .

اتجهت أبصار الناس فجأة إليهم والحارس يقترب منهم ، فقال (على) هامسًا لرفيقه :

— هل نركض أم نخرج سيوفنا الآن ؟

قال الحارس صائحًا لهم قبل أن يجد (على) ردًا :

— إن العرافة تخبرنا بأن الفارس الغائب سيجلب لنا الصخرة الآن .

ثم سكت وهو يستمر فى الإقبال نحوهم حتى وصل فقال :

— وأن هذا الفارس هو أحدكم .

اندهش الثلاثة قبل أن يسأله (على) :

— ولماذا لا يكون من سرق الصخرة هو أحدنا ؟

— لأننا — أيها الشاب — رافقناكم منذ دخولكم المدينة وحتى الآن ، كما أنكم لم تتجهوا ناحية البئر ولا تعرفون مكانها ، ولا تعلمون أهمية هذه الصخرة بالنسبة لنا لتحرمونا منها .

سأله (الزين) :

— إذن فكيف يسرق الصخرة غريب . لابد أن يكون أحد سكان هذه المدينة ليكون عالمًا بمكان البئر وأهمية الصخرة بالنسبة لكم .

قطب حارس الصولجان جبينه لمنطق (الزين) ، ولكنه — برغم ذلك — قال :

— إن العرافة لا تخطئ أبدًا .. من سرق الصخرة غريب عنا ، فما كان ليفعلها أى منا أبدًا .

قال الشيخ (عبد الحميد) :

— من منا الفارس الغائب إذن ؟

كان القوم يتابعون هذا الحوار الدائر بين الحارس والأغراب ، لكن بعد السؤال الذى أطلقه الشيخ اتجهت كل العيون إلى واحد فقط .

واحد من الأغراب .

انتقى القائد الجديد لجيوش الغرب أحد الجنود المتميزين ، بعد أن أمرهم جميعًا بمعاودة الزحف نحو بلاد الشرق .. قال له :

— أنت الآن معاوني ، ستتعهد بالإخلاص لى من أجل الوطن والإمبراطور .

قال الجندى بسعادة :

— أمرك يا عظمة القائد ، فأنا فداء الوطن والإمبراطور .

— سيحاصر بعض الجنود بقيادتي مملكة الشرق من خارج أسوارها ، بينما يقتحمها عدد آخر بقيادتك يُرهبون سكانها ، فيأسرون من يأسرون ويقتلون من يأبى حتى تعم القوضى ، بعدها تأتي بنفسك لتتولى قيادة بعض من الجنود هنا وأصبح أنا بعضهم إلى قصر الملك مباشرة لأحكم سيطرتى على المدينة .. هل استوعبت ؟

— نعم سيدى .

— عظيم .. سترسل بعدها من يبشر جلالة الإمبراطور ليبعث من يحكم ولايته الجديدة ، وحتى يصل الرسول سنبقى فيها .

قال المعاون مبتسمًا :

— خطة بسيطة يا عظمة القائد .

صاح به القائد :

— لا تستهن بأى عدو مهما بدا ضعيفًا ، ومهما بدوت مخنكًا .. هل تفهم ؟

أجاب الرجل بارتباك :

— أفهم سيدى .. أفهم جيداً .

— انطلق إلى المقدمة إذن .

كان حارس (سانتور) يدور حول (الزين) و (على) المعلقين مبتسماً يلفظ بعض كلمات الشماتة ، وهو بين الحين والحين يلقي نظرة على نار القدر ليتأكد من استمرار لهيبها ، حتى سمع حركة في الخارج فتجههم وسحب سيفه بسرعة متوخياً الحذر ونظر باتجاه المدخل المظلم ليفاجأ بحجرة تصيب وجهه ، فسقط على ظهره بينما شحذ الموقف انتباه (الزين) و (على) المنهكين ، والشيخ المتألم بجوار الجدار ، اتجهت عيون الجميع ناحية المدخل ليروا القادم الذى بدا شبحاً في الظلام حتى اخترق المدخل وتظهر ملامحه ، فبدت ابتسامة واهنة على شفاه (الزين) و (على) بينما تقللت أسارير الشيخ (عبد الحميد) ، وهو يقول :

— ما رأيك في هذه الحرارة يا (بقدونسى) ، أليست أفضل من الجليد الذى كنا به قديماً ؟

اتجه (البقدونسى) ناحية الحارس المصاب يركله في فكّه وهو يدور باحثاً عن قيد ، قائلاً للشيخ :

— بل هى أفضل من الأشواك التى رقدنا عليها يوماً تحت الشمس يا شيخ (عبد الحميد) .

قال (الزين) بوهن للرجل :

— هلم إلى ، فك قيدي وقيد به .

ابتسم الرجل وهو ينظر لـ (الزين) قائلاً :

— كيف أصعد إليك إذن أيها الذكي ؟

ثم نظر بداخل القدر وهو يقول ساخرًا :

— ماذا تطهون اليوم ؟ فأنا جائع بالفعل .

* * *

٧ - المعلم (خازن الشیبی) ..

رفع المعاون الجديد لقائد جيوش الغرب يده إشارة بالتوقف ، فاتجه القائد ناحيته من وسط الصفوف يسأله عن السبب فرد الرجل وهو يشير بامتداد ذراعه :

— هناك .

نظر القائد حيث يشير ، ثم قال :

— سأصحب عشرة جنود لنرى من هؤلاء ، وابق متحفزاً مع الباقين .

— أمرك يا عظمة القائد .

أشار القائد لعدد من الجنود وسار أمامهم حتى وصل إلى رجال كُثر يقارب عددهم عدد جيش ، وكانوا متسلحين يمتطون جياداً ويرتدون ملابس خضراء .. تقدم أحدهم للقائد يسأله بتعال :

— هل تعرفنى يا هذا ؟

— نعم أعرفك ، أنت من أحضر لنا الخرائط والكتب من بلاد الشرق وأندرنا بقيام حرب .

— وأنتم من خدعتم لیتفادوا الحرب وقتها حتى يتموا استعداداتهم لها .

— لم يخدعونا ، نحن فى طريقنا لغزوهم .

— أطلب منك معروفاً مقابل هذا إذن .

— لا أدرى إن كان على تلبية ما تريد .

قهقهه (سانتور) طويلاً قبل أن يقول :

— ابعث لى بقائذك إذن فهو يدرى ما عليه فعله .

أثرت الكلمة فى نفس القائد وقال بعصبية :

— أنا القائد هنا وأنا أدرى بما على فعله .

احتدت ملامح (سانتور) وقال بصرامة :

— فر منى ثلاثة رجال من أهل بلاد الشرق — عجوز وشابان —
أريدهم بأى ثمن .

قال القائد بحزم أكبر :

— هذه أمور قُطَّاع طرق لا تليق بجيش إمبراطور الغرب ، أدخل لنا
الطريق كى نمر .

— أنت لا تريدها حرباً بيننا الآن .. أليس كذلك ؟

— كيف تجرؤ أيتها الوغد ، فأنا قائد جيوش دولة عظمى وأنت لص
تافه لا يليق بى التحدث معه فضلاً عن إجراء مساومة سخيفة هنا .

— هذا التافه أنقذ بلادك من غزو محقق ، وعليك أن تحمد لى هذا أيتها
القائد المدعى .. كما أنه لا تبدو عليك أمارات القيادة قط .

جُرْح آخر فى نفس القائد الذى أخرج سيفه ليشهره لأعلى ، لكن
سوط (سانتور) لقفه قبل أن يكمل رحلته وألقى به بعيداً وصاح به :

— أنت لم تع ما كنت ستقدم عليه ، إن عاديتنا فأنت الخاسر حتماً ،
أنت لا تدري من يكون هؤلاء الذين معى .. إنهم ليسوا مرفهين يحملون
سيفاً تبرق وينتمون لوطن كجنودك الخرقاء ، بل هم أجساد تربت على
الذل وتعرفت القهر ، ثم ذاقك بعد ذلك النعيم على يدى أنا ،

سيسحقون صبيانك بإشارة منى فى لحظات قبل حتى أن يتمكن أيهم من إخراج سيفه الهش .

نبح (سانتور) فى إثارة توتر القائد وزعزعة ثقته بجنوده ، فقال بعصية أقل :

— ماذا تريد إذن ؟ إنك تعوقنى عن مهمتى .

— لا أطلب الكثير ، لكن حينما تحكم قبضتك على مملكة الشرق سأتولى أمر ثلاثة من رجالها أحثاجهم لأمر يهمنى .

ثم استطرد :

— ولا تنس بعض خيرات الملك التى تعين هؤلاء الرجال على الصمود قليلاً أمام قسوة الحياة .

قالها مشيراً باتجاه رجاله وأخذ يقهقه وحده عالياً للدعابة التى ألقاها ، فى حين امتلأ وجه قائد الجيوش بالتجهم .

أخذت كل العيون تحمق فى وجه الشيخ (عبد الحميد) الذى ابتسم ، وهو يقول :

— كنت أتوقع هذا .

سأله (على) :

— أكنت تعرف أنك الفارس الغائب يا شيخ ؟ هل كنت فى هذه البلاد من قبل ؟

— كلا لم أطأها قبل اليوم ، ولكنها أسطورتهم يا (على) .. لو أن

الفارس الغائب اختفى منذ سنين عديدة فلابد أنه في مثل عمرى الآن .

قال (الزين) :

— لكن عمر هذا الرجل يتجاوز الستمئة عام ، وربما غاب هذا الفارس منذ ثلاثمئة عام أو أربعمئة .

— الأسطورة تعم هذه المدينة كلها يا (زين) ، أما السن فيخص الحارس وحده ، هذا يعنى أن الأعوام التى مرت على اختفاء الفارس إنما هى بتقديراتنا نحن لا تقديرات الحارس العجوز .

تتم (على) :

— لو أنه فعلاً بهذا العمر .

صاحت العرافة الشابة بصوت أنثوى رقيق يادٍ لمسامع الجمع :

— هلم أيها الفارس العائد ، فبلاد أخرى تحتاج إليك الآن .

سألها (على) بسرعة واستهانة :

— أية بلاد تلك أيتها الدجالة ؟

نظرت إلى عينيه مباشرة وقالت بصرامة قاسية :

— أنا عرافة أيها المحارب ، إن عدم احترام الآخرين ليس من شيم الفرسان .

ثم أردف :

— بلاد الشرق فى حاجة إليكم .. قبل بزوغ الفجر .

انفرد الشيخ (عبد الحميد) و (علي التوحیدی) و (الزین ابن الجبال)
بمعزل عن سكان مدينة الأساطير يتشاورون في أمر إعادة الصخرة المفقودة
لأهل المدينة ، سأل (الزین) :

— لِمَ نساعدهم يا شيخ ونبحث لهم عن الصخرة ؟

— يا ولدي هم يقصدوننا لنعاونهم ، ولا تنس أنهم كادوا يستضيفوننا
لقضاء ليلتنا بينهم بدلاً من قضائهما في الخلاء .

قال (علي) :

— لكن يا شيخ هذه ليست معاونة منا بل إننا سنقوم بما يجب عليهم
فعله ، هذه صخرتهم ومدينتهم وعليهم إيجادها بأنفسهم .

— أما كنت لتفعل يا (علي) لو أن ضعيفاً أو قليل الحيلة طلبك
لمساعدته ؟

نكس (علي) رأسه بينما قال (الزین) من جديد :

— إذن كيف ستجد الصخرة يا شيخ ؟ إنك فارسهم الآن وأنت من
عليه إيجادها .

— سوف نبحث ثلاثتنا عنها ، وسنبداً بالبحث خارج أسوار المدينة
بحثاً عن أى أثر للهارب بالقرب منها .. لكن علينا أن ننجز هذا الأمر
بسرعة كي نعود إلى بلادنا قبل الفجر بوقت كاف .

أوما الصديقان فاتجه الشيخ إلى حارس الصولجان وأهله :

— سوف أجد هذه الصخرة يا سادة عن طريق هذين الشابين ، فهما
من سيرشداني إلى مكانها .

قال الحارس :

— لا بأس أيها الشيخ الطيب ، إنما مهمتك وعليك قضاؤها بطريقتك .

قالها وهو يومئ برأسه دون معنى ، قال الشيخ من جديد :

— وسنحتاج إلى جياذ قوية لنصل سريعاً إلى وطننا .

أوما الكهل من جديد ، فابتسم الشيخ وأشار لرفيقه متجهين إلى سور المدينة تتبعهم عيون السكان جميعاً .

* * *

استعان (البقدونسي) بملابس الحارس المغشى عليه وأمسك بالقدر يفرغ ماءها على الشعلة التي كانت توقدها ، ثم قلبها وفرش الملابس على قعرها الذي أصبح قمتها الآن ، وصعد عليها يفك قيود (الزين) و (علي) معلقاً :

— يمكنكم أكل قدمي مشويتين بعد أن أنزل ، فهذا القدر ساخن للغاية .

قال (عبد الحميد) :

— كف قليلاً عن سخرتك هذه وهلم لنفر من هنا .

قهقهه (البقدونسي) طويلاً حتى سقط من فوق القدر وقال بصوت متقطع تمازحه الضحكات :

— الفارس .. (عبد .. الحميد) .. الذي قماه به كل السيوف .. وكل الفرسان .. ويذكره التاريخ .. على مر الأزمان .. يريد أن يفر .

واستمر في قهقهته حتى دمعت عيناه وهو مستلق على ظهره يرفس الهواء بقدميه ، فقال الشيخ بعد أن عاونه (الزين) على النهوض بينما يجاهد (علي) ليكمل تخليص نفسه :

— يا لك من طفل .. برغم كل ذكائك وحنكتك وشعرك
الأشيب إلا أن الطفل بداخلك يشرق دوماً .

عاود (على) (البقدونسي) على النهوض والتخلص من هذه النوبة ،
وأخذوا يتلصصون عند المدخل — بعد أن قيدوا الحارس وكمموه —
حتى أمّنوا ، فخرجوا بسرعة من المكان ، وما إن ابتعدوا بما يكفي حتى
تركهم (البقدونسي) يكملون رحلتهم حائرين دون إخبارهم بكيفية
معرفته لمكانهم .

* * *

أخذت الأميرة في حجرها الواسعة تمر بين الطاولة والكرسي أو بين
السريّر والمرآة ، تتلمس الوسادة أحياناً وتجلس على الأرض أحياناً وتبدل
ملابسها — دون حاجة — أحياناً أخرى ، مر وقت طويل عليها بهذا الحال ،
ثم جلست تجهز بردية ومداداً وريشة لتكتب :

« إلى الفارس الذى اجتاح قلب أميرة بلاد الشرق ، الأميرة (سولى) .. »
توقفت عن الكتابة وأخذت تتأمل ما كتبت ، لم تشعر بالرضا ؛ فقامت
لتحرق البردية فى مدفأها ، وعادت لتكتب من جديد :

« إلى فارس بلاد الشرق ، الملك المنتظر .. »

من (سولى) .. الحائرة التى تتمنى له العودة سالماً ..

إنى أيها الفارس (الزين) أعجبت بشجاعتك وجرأتك أيما إعجاب عندما
خبرنى ما قمت به من أجل صاحبك ضد الأشرار ذوى الملابس الخضراء ،
أعجبني إخلاصك لصاحبك ، كم تمنيت أن تكون لى من هى فى مثل وفائك
صديقة ، أشكو لها وتهتم لأمرى .. أنت لا تظن أنى أخلو من الشكوى ،
فوحدتى أقاسى منها ويُتمى يحز فى نفسى كل حين .

لا أخفى عليك فطنى يوم رأيتك أول مرة ممتطياً جوادك فعلمت أنك فارس ، تمنيت أن أعرف اسمك لحظتها .. ثم جاهدت محاولة تذكر وجهك بعدها دون أن أفلح كثيراً ، حتى رأيتك فى ديوان الملك .. خفق قلبى من جديد ، وخشيت أن يفضحنى فانشغلت بفكرى فى أشياء أخرى غيرك ، لكن لم أتمكن من الاستمرار فى هذا طويلاً .

أعلم أنك الآن تواجه خطراً ما ، كم أتمنى أن تنتصر .. أنا قد واجهنى خطر كبير هذا الصباح ، لا أنكر سعادتى لأن وضعنى الأقدار فى هذه المغامرة .. أبداً لم أمر بهذا الشعور من قبل ، هل أحكى لك ما حدث ؟ أنت فارس ومثل ما سأحكيه بالنسبة لك هين قابلت أعظم منه مراراً .. ألم تفعل ؟

لقد حسمتُ أمرى وسأخبرك بمغامرتى ، أنت الآن صديقى حتى أفرغ من الحكى .. فهل تكتم السر ؟ الأصدقاء يكتمون الأسرار .

خرجتُ دون وعى إلى الأراضى المزروعة خارج القصر شاردة ، أفكر فيما أخبرتك به منذ قليل .. خفقان قلبى ورؤيتى لك أول مرة وجل هذه الأمور ، هل تذكرها أم إنك ستعاود القراءة من جديد ؟ بل أظنك لن تفعل ، فالفرسان لا ينسون بهذه السرعة .. خرجت ورائى وصيفتى تتكلم كثيراً .. ربما كانت تنادىنى أو تحذرنى من الخروج أو تشكو لى أمراً .. لم أتابع حديثها ولم أهتم ، إذ وجدتنى أتناول ثمرة أقضم منها وأنا على شرودى وما تزال الوصيفة تبعنى ، راعنى فجأة صوت مخيف .. صوت ذئب .. لم أعلم فى حينها أن هذا الصوت للذئب لكنه كان صوتاً مخيفاً ، سقطت منى الثمرة وانتبهت إلى أنها برتقالة ، لقد قضمت البرتقالة بقشرتها ولم أنتبه للطعم إلا بعد عواء الذئب .. هل تعلم من الذى أنقذنى ؟ لقد كنت أتمنى أن تكون أنت منقذى .. أنت أول من جال بخاطرى

وقتھا ، فی الحقيقة أنت لم تغب لحظة ، فکما أخبرتک أننی كنت أفکر بک ..
لقد وعدتني ، ستکتم السر .

وجدتُ جنديًا من حراس القصر يطلق سهمين علی الذئب وهو قافر
باتجاهي فسقط لتوه .. أنقذ الجندي حياتي .. ولأمنی أبی بعد هذا برقة .

أنت فارس وبالتأكيد ورائک من الهموم الكثير ، أنت تُعد نفسك
لتكون ملكًا ، وأنا أهدر وقتک بمغامرة سخيقة .. إننی لن أنسى هذه
المغامرة ما حييت ، فهي أولى مغامراتي .. هل تظن أنه ستكون لی
مغامرات أخرى ؟ هل شارکتک فتاة مغامرة من قبل ؟ هل يمكن أن تتاح
لی مثل هذه الفرصة أيها الفارس ؟ أتیحها لصديقة ؟ »

أخذت (سولی) تعيد قراءة ما كتبت عدة مرات ، وهي أمام الطاولة
أو علی السرير أو بينما تدور فی حجرتها من جديد ، المهم أنھا فی النهاية
طوت البردية ، وهزت رأسها متجهة نحو المدفأة !!

* * *

لم یکد الثلاثة یعبرون بوابة سور مدينة الأساطير إلى خارجها حتى
وجدوا رجلًا یستند إلى صخرة علی بُعد خطوات قليلة من البوابة ، اتجه
إليه الجميع فبادرهم قائلًا :

— مرحبًا أيها السادة ، تأخرتم قليلًا .

سأله (علی) مندهشًا :

— وهل كنت فی انتظارنا یا هذا ؟

— نعم أيها الرشيق ، ما فعلت هذا سوى لتأتوا إلى .

خطر للجميع أنها مكيدة ثم خطر لـ (الزين) شيء آخر فقال :

— أنت من رجال (سانتور) ألسـت كذلك ؟

قهقه الرجل وهو يقول :

— كما توقعت تمامًا ، كنت أعلم أنك ستنتبه إلى ذلك أو الشيخ العجوز .. نعم أيها الفتى ، أنا من أعوان السفاح ، أو يمكنك القول إنني كنتُ من أعوانه .

— ولماذا (كنت) ؟

ابتسم الرجل وهو ينهض مجيبًا :

— لأننى فى مثل عقله ولى مثل طموحه ، وهذا لا يجعل التوافق بيننا شيئاً ممكناً ؛ لذا قررت القضاء عليه .. لا يجتمع مثلانا فى عالم واحد فى ذات الزمن .

قال الشيخ (عبد الحميد) :

— فـيم تريدنا إذن ما دامت نيتك سوءاً ؟ أنت تعلم أننا لسنا بقتلة .

اقرب الرجل من الشيخ :

— بالنسبة لكم نيتى سوء ، أما بالنسبة لى فالأمر ليس كذلك ، وبالنسبة لكم فأنتم بحاجة للقضاء على (سانتور) وشره ، وأنا أهل لمساعدتكم فى هذا الأمر .

قال (على) :

— أو نقضى على سفاح من أجل آخر ؟

— بل من أجل بلادكم أيها الرشيق .

استدعت هذه الجملة عبارة العرافة بشأن بلادكم قبل الفجر ،
فاستفسر (الزين) بحذر :

— ماذا تعنى ؟

— يتجه إلى بلادكم في هذه اللحظة جيش الغرب ليغزوها ويضمها
لحكم بلاده ، (سانتور) سيعاونهم مقابل أسر ثلاثكم .. فلو أننا قضينا
على (سانتور) لاختلت خطة قائد جيوش العدو ، ولتخلصتم من شره
المضمر لكم ولبلادكم .. بل ربما والمضمر للأرض بأسرها .

تبادل (الزين) والشيخ و (على) نظرات قلق حائرة فيما يسمعون ،
وأخذ الرجل يتفحص أعينهم حتى استشف تردددهم فقال حاسماً الأمر :

— سنفقد الكثير من الوقت لو أنكم ستدرسون أمرى بالصمت طويلاً ،
علينا إنقاذ بلادكم .

— فیم مصلحتك إنقاذ بلادنا إذن ؟

سأله (الزين) ، فأجاب الرجل وهو يرفع الصخرة التي كان مستنداً
عليها .

— مصلحتي هي إيجاد من يعاونني على التخلص من السفاح ، وهذه
أمثل فرصة وقررت استغلالها .

— ماذا يضمن لنا أنك لن تكون سفاحاً آخر ؟

— لن أكون ، أعدكم أن تأمن بلادكم شري .

سأله الشيخ :

— هل هذه الصخرة هي المسروقة من المدينة ؟

— نعم يا شيخ ، هي ذى أحملها لهم كى يهدأ روعهم أولئك الحمقى ،
وهلم لتنتجه إلى بلادكم سريعاً .

أوماً الشيخ برأسه فبادره (على) بسؤال :

— هل سنتعاون مع لص يا شيخ ؟

— بل سننقذ بلادنا والأرض كلها من خطر داهم يا (على) .

وعاد بالصخرة إلى داخل الأسوار .

بعيداً عن المكان الذى احتجزهم فيه (سانتور) ، وبعد مغادرة
(البقدونسى) قال (على) :

— ما هذا السائل - الزيت الأسود - يا شيخ !؟

ظل الشيخ على صمته قليلاً وهو شارد ، ثم أجاب :

— كان (خازن الشيبى) أحد علماء أرض الجزيرة قد اكتشف
بالصدفة تحت سفح هضبة سائلاً غريب اللون والملمس .. لزجاً أسود
قميئ الطعم ، لكنه يؤمن بأن كل شئ فى الكون موجود لنفع .. فأخذ
يبحث عن فائدة لهذا السائل اللزج حتى توصل إلى أنه وسيلة جيدة
للاشتعال ، فكان يسكب بعضاً منه على الخشب ويوقد الشرر بقربه
فتشتعل بسرعة ويشتعل بدوره الحطب بسهولة .

— وكيف علم السفاح بأمره ؟

— إن العلوم ليست ملك صاحبها يا (على) .. لقد نشر (خازن)

هذه المعلومة بین أقرانه لیبحث کل عن مثل هذا السائل تحت أرض بلاده فیستفیدوا به ، لكن لم یفلح أحد ، ولم یعرف لهذا السائل مکان غیر تحت هذه الهضبة .. وفی یوم نفذ الزيت من تحت الهضبة ، ولم یعرف الكثیرون بهذا التطور فی الأحداث .. مر علی هذا الأمر أعوام كثيرة ، وأظن المعلومة وصلت متأخرة وناقصة إلى (سانتور) .

قال (الزین) :

— لماذا لم تخبره إذن بأن الزيت قد نفذ ؟

— لا تنس أنني أنکرت معرفتی بمکان السائل منذ البداية ، لقد استشعرتُ شراً من وراء اهتمامه بهذا الزيت فخشیت إخباره بمکان وجوده حتی لا ینبش أرض الدنیا کلها فیجده ، ویدمر العالم بشره المجنون .. وهو ما کان لیصدق أن الزيت نفذ .

استمر الجميع علی صمتهم حتی ابتسم (الزین) وسأل :

— ما حکایة (البقدونسی) مع الجلید والأشواک یا شیخ ؟

ابتسم الشیخ و(علی) بدورهما ورد الأول :

— کنا فی حرب مع جیش أقاصی الغرب ذات یوم ، وكانت قد وردتنا أخبار عن أسرهم المَعلم (خازن الشیخی) فی حرب مع الجزيرة منذ عدة شمس وأقمار ، فقرر (البقدونسی) التظاهر بأنه وقع فی أسرهم ولم أدر وقتها السبب ، لكن بمعاشرتی له فهمت أنه يدعی ما فعل ، وقررت ألا أتخلى عنه فتظاهرت مثله لأکون معه .. ولما عرفت خطته أیدته فیها .

صمت قليلاً کأنما یستعید الأحداث ، ثم استطرد وهم علی سیرهم :

— کبلونا شبه عراة إلى أوتاد فوق ثلوجهم الباردة ، ولم یکف (البقدونسی) عن التşkى والسخریة لحظة ، وتعجب الجنود من ضحکاتنا أحياناً

وتعبر اتنا عن الألم أحياناً آخر ، حتى خطرت لى فكرة استدعاء الشعور
بقيظ بلادنا الشديد أثناء فصل الصيف بذاكرتى وجسدى كى قدأ
البرودة السارية فى أوصالى قليلاً .

أطرف ما فى الأمر أن (خازن) لم يكن ضمن الأسرى الذين وضعنا
مهم ، فكان علينا البحث عنه فى الأماكن الأخرى بعد التخلص من
قيودنا عند حلول الليل وإلغاء الحراس ، ثم إيجاده والعودة عبر كل هذه
المسافة إلى بلادنا أو إلى الجزيرة .. خطة جنونية ، حماس الشباب وقتها
وحده هو ما جعلنى أؤيد (البقدونسى) فيها .

قال (الزين) :

— ولكننا لم نر (البقدونسى) معك سوى مرات قليلة .

— إنه يكره الاستقرار ويهيم بالسفر والبحث والتعرف على أناس
ومعرفة أمور العالم ، ويقارن بين الشعوب فى طباعها وطقوسها ، ولكنه فى
النهاية لا يفتأ يعود إلى وطنه حين يشعر بالغبرة تتسلل إلى نفسه ويفتقد
أصدقاءه الأول .

سأله (على) :

— وهل أنقذتم المعلم (خازن) يا شيخ ؟

— علينا أن نستدعى قصة الرقود على أشواك الصبار أولاً يا (على) .

قال (الزين) :

— استدعها إذن يا شيخ ، فقد بدأت أشعر بالجوع والعطش والإرهاق .

٨ - بلا حرب ..

— لا أصدق سذاجة هؤلاء القوم يا شيخ ، لقد كانوا على وشك عبادتك مجرد أن أعدت لهم صخرتهم السخيفة تلك .

قالها (على) ، فرد عليه الشيخ وهم سائرون مع معاون (سانتور) القديم و (الزين) كل على جواد :

— ما لا أفهمه هو كيف علم رجل (سانتور) بأمر هذه المدينة وأسطورة صخرتهم .

أجاب الرجل وهو متقدم المسيرة دون النظر إلى الوراء :

— هؤلاء القوم يصنعون من نبات أخضر مسحوقاً أبيض يتناولونه ، فيذهب بعقولهم بأسوأ مما يفعل الخمر يا شيخ ، وأنا اعتدتُ مقايضة هذا المسحوق بطعام وملابس لهم ، ومن خلال ترددى الدائم عليهم علمتُ الكثير .
(الزين) :

— لكنهم بدوا شديدي الاتزان والعقلانية .

— بل الحارس والعرافة فقط ، إنهما من يحكم هذه المدينة ويدس في رءوس أهلها الأوهام باسم الأساطير والتاريخ وما إلى ذلك .
الشيخ (عبد الحميد) :

— ولكن هذه المدينة لم يكن لها وجود من قبل .

— هم رحالة متشردون تجمعوا في هذه المنطقة وبنوا سورها بأمر الحارس الذى أوهمهم بأنها أرضهم ومدينتهم وكل هذا الهراء .

— لكن في الكهف ، لقد كان ...

قاطعته الرجل :

— كان منمقًا وأخبرك الحارس بأنه من صُنع الأجداد وهُراء آخر ، إنها أوهام للناظر تصنعها ساحرتهم (العرافة) .

(الزين) :

— يا إلهي ، وكيف خُدعنا بهذه الطريقة ؟

— ومن تكون أيها الفتى كى لا تتخدعك أفعال السحرة ؟ المهم أنك لم تخسر شيئًا من ذلك بل إنك متوجه لتتقذ بلادك كما نبهتك هذه المرة .

(على) :

— وما أدرانا بصدقها ؟

— أنا أدرى .

(الزين) :

— وما أدرانا بصدقك ؟

— سنعود بهذا إلى نقطة البداية أيها الفارس ، لا وقت نضيعه في عملية التصديق هذه .

قال الشيخ بغتة :

— أنت تخفى شيئًا .. أليس كذلك ؟

— ماذا تعنى ؟

— حكاية القضاء على (سانتور) وأنك فى مثل تفكيره وطموحه .. ربما أنت صادق بهذا ولكنه ليس السبب الوحيد ، فليس أمرًا كافيًا لقتل شخص .

لم يُجب الرجل ، فتوقف الشيخ بجواده وشعر الرجل بهذا فاستدار ناحيته :

— أنت على حق ، لكننى لا أرغب فى ذكر المزيد .

ابتسم الشيخ وعاود السير قائلاً :

— لا بأس ، فلن أجبرك .. المهم أنى ازدادت ثقة فى شيعتى هذه التى لم يخطئى حدسها .

قال (على) بعد صمت خيم على الجميع :

— هل (سانتور) يهودى كما يشاع عنه ؟

أجابه الرجل :

— لا ندرى من أمر دينه شيئاً .

— هل أنتم يهود ؟

— هل تقصد بـ (أنتم) أى أتباع (سانتور) ؟

— نعم .

— فى أتباعه من كل الأديان نفر أيها الرشيق .

استمروا على سيرهم بصمت جديد حتى كسره (على) :

— كيف عرفت أن هذا الرجل من أتباع السفاح يا (زين) ؟

— ألم تلاحظ مناداته لك بالصفة التى وصفك بها ذلك الـ (زعيتر) ورفيقه فى الكهف يا (على) ؟

— هذا صحيح .

ابتسم الرجل بإعجاب دون أن يلحظ أى منهم هذه الابتسامة لتقدمه المسيرة ، يليه (الزين) و (على) متجاورين ، ثم الشيخ خلفهم .

* * *

دخل الحاجب ديوان الملك (شاكسیر) يبلغه بطلب (سانتور العظيم) لمقابلته ، فقال الملك :

— العظيم !! ليدخل وحده إذن دون سلاح ، إنه شخص خطر لا يؤمن جانبه ، وابعث إلى بحارسين أو ثلاثة .

لم تمض وهلة حتى دخل السفاح مجرداً من سيفه وسوطه ، يرافقه ثلاثة من حراس الملك الذى بادره وهو يتفحص قامته :

— أنت السفاح إذن .

ابتسم (سانتور) وهو يرفع صدره ويركز يديه في نطاقه قائلاً :

— هو أنا يا جلالة الملك (شاكسیر) الحكيم .

— ماذا تريد ؟ ألم تكف بمعادتنا وسرقة بلادنا وتأليب البلاد الأخرى علينا ؟

نظر (سانتور) إلى حراس الملك وهو يقول مشيراً ناحيتهم :

— هل ستتحدث أمام هؤلاء ؟ إننى وحدى بلا سلاح ، أفلا تأمن نفسك معى رغم هذا ؟

تطلع الملك في عينيه مباشرة وهو يجيب بحزم :

— دعك من هذه المحاولة ، أنت تعلم أننى عجزو مسن أفقر للياقتك وقوتك ، يمكنك قتلى يديك العاريتين أيها السفاح ، دون أن يطرف لك جفن .

— کیف تظنی سأخرج من هنا بعد ذلك إن فعلت ؟

— لا يهمنى أن أفكر في هذا ، هات ما عندك .

قالها بعصبية وهو ينهض من عرشه ، فقال (سانتور) بهدوء :

— إنني أضع قوتى وجيشى تحت تصرفك أيها الملك الحكيم .. أريد أن أكون من الأخيار ، ورأيت أنك أكثر من سيفهم ذلك ويعاوننى عليه .

هلق الملك فى وجه (سانتور) طويلاً ثم ارتقى على كرسیه ، وبعد هنيهة هز رأسه وعاود الوقوف مرة أخرى وبدأ يدور حول عرشه مفكراً فى كلام السفاح ثم انتصب أمامه مباشرة وعاد للحملقة به مرة أخرى ، ثم قال :

— كلا أيها السفاح لا يمكننى ذلك ، فأنا ما زلت أتوجس منك ولا أستطيع أن أسلم لك مقاليد أى أمور قبل التأكد من صدق نيتك وهدفك .

— كنتُ أتوقع هذا الرد منك أيها الملك الحكيم ، لذا فأنا مستعد لعمل أى شىء تريده كى أثبت لك حسن نيتى وصدق هدفى كى تأمن لى .

هز الملك رأسه متفهماً وعقد كفيه خلف ظهره واتجه إلى كرسى الحكم ووقف أمامه مولياً ظهره لـ (سانتور) لفترة طويلة ، والحراس الثلاثة متحفزون طوال الوقت ، والسفاح بادى الهدوء للغاية حتى التفت له الملك وسأله بسرعة :

— ستكون تحت إمرة كبير العسس تعمل على تدريب حراس الأمن .

أجاب السفاح :

— كما يأمر مولاي الملك .

صاح الملك بحراسه غاضبًا :

— كبلوه جيدًا هذا الوغد .

اندفع حارسان بسرعة يقيد كل منهما ذراعى (سانتور) بقوة ، بينما رفع الثالث القدمين عن الأرض ليصبح بهذا عاجزًا عن الحركة مندهشًا غاضبًا يسأل :

— لكن لماذا ؟

أجابه الملك :

— لأن السفاح يعتبر مثل هذه الأعمال دون مكانته ، فهو قائد عظيم لجنود لهم شأن عظيم عبر العقود ، ولما يقبل لواحدة من الأعمال التى لا تليق به فهو بالتأكيد يخطط لشيء خطر يضمرو وراءه شرًا .

بدأ حاملوه بالتحرك به ، لكن هذا لم يمنعه من أن يقول بلهجة لوم :

— ولكننى أخبرتك أننى أود الاهتداء .

— هل تظننى أصدق أنك فجأة غيرت مبادئك وأهدافك وفرقت الصواب عن الخطأ خلال يوم واحد فقط ؟ إنها واحدة من ألاعيبك أيها السفاح .

ثم صاح بحراسه :

— أخفوه عن وجهى فى سجن القصر ، ولتحذروا ألعبييه جيدًا .

انتقى الشيخ (عبد الحميد) واحدة من خرائطه وفردها أمام عينيه ثم أشار إلى نقطة ما عليها وهو يقول :

— هناك بئر في هذا الاتجاه أيها الفارسان ، فلنتجه ناحيتها ريثما أكمل لكما قصة المعلم (خازن) .

وجه الثلاثة ألجمة خيولهم إلى حيث أشار الشيخ بينما كان يحكى :

— بعد طول عناء دون زاد أو ماء ، وبخدر شديد لتفادى جنود جيش العدو كنا نبحت عن (خازن الشبي) بين وجوه الأسرى ، وجوه منهكة تغيرت ملامحها بسبب التعذيب ، ووجوه أدركنا تمامًا رغم أعينها المفتوحة أنها لا ترانا ولا تشعر بوجودنا .. ربما ماتت أو في حالة من اللاوعى أو عميت .. المهم أن أكثر ما أقلقنا هي الأماكن المقفلة ، كنا نخشى أن يكون بها أسرى من بينهم (خازن) .. حتى وجدناه .

صمت قليلاً ثم استطرد :

— كان يبرز من الجليد أشواك لا أدرى كيف وضعوها أولئك الوحوش الآدمية ، كان (خازن) مقيداً على ظهره إليها ، تعذيب بالبرودة والخدوش خاصة لو تحرك فوق هذه الأسنة المدببة .. قللت أسارىنا ونسينا العناء والألم فور رؤيته ، وكدت أنسى وضعى من السعادة وأخرج من خلف الصخرة لإنقاذه لولا أن جذبني (البقدونسي) بقوة هامساً بغضب « تمهل .. والحراس ؟ » ، نظرتُ ناحيتهم مرتبكاً وهم يدورون حول الأسرى المقيدين في الأرض أو المصلوبين أو المعلقين يتفحصون نبضاتهم وأعينهم ، فالتفتُ إلى (البقدونسي) لأستشيريه فيما علينا فعله الآن ، لكن فوجئت به غير موجود .. هلمتُ وبحثت عنه بعيني في كل مكان حتى وجدته يزحف بالقرب من (خازن) .. ولا أخفى عليكما أنني كدتُ أضحك إعجاباً بفطنته وحسن تصرفه ، وكذا لطريقته المضحكة في الزحف .

كانوا قد اقتربوا من البئر ، فقال الشيخ :

— هيا يا (زين) سد جوعك واملاً بطنك بالماء ، لكن بتمهل .

ترجل (على) من فوق حصانه ليعاون (الزين) السائر منذ برهة ، على ملء القرب التى يحملونها من ماء البئر حتى ارتوى الجميع وفاض معهم الكثير مما سيحملونه فى مسيرهم .. ثم استحث (على) الشيخ (عبد الحميد) لاستكمال القصة :

— كانت أصعب لحظة على (البقدونسى) هى عند اقترابه من موقع (خازن الشيبى) حيث أدمت يديه الأشواك ، ولم يتمكن من تمزيق أى جزء من ملايسه ليحمى به يديه كى لا يجذب انتباه الحراس ، ثم ظهرت لحظة أخرى أكثر صعوبة من سابقتها ، عندما صاح أحد الأسرى المقيدين بجوار (خازن) معلناً وجود غريب يحاول إنقاذ أسير .

قال (الزين) بغضب :

— ولماذا يفعل ؟ تباً له .

أجابه الشيخ مبتسماً :

— لا داعى للغضب يا (زين) أنت تعلم أن كليهما غير هذه الخنة بخير .

ثم استطرد :

— لقد ظن الأسير أنه بفضح أمر (البقدونسى) و (خازن) ، سيرضى الأعداء فيطلقوا سراحه ، ولكن فى الحقيقة أنهم كانوا أكثر احتراماً من ذلك ، فقد انقضوا على (البقدونسى) وقيدوه بجوار صديقه وذهبوا يستدعون كبيرهم لبيت فى الأمر ، ولما أتى ، أمر بقتل الواشى ، بحجة أنه

ارتكب خطيئة عظيمة .

— مبدأ نبيل .

— نعم ، ولكن كان على وقتها إنقاذ رجلين بدلاً من واحد ، ودون أن ينفضح أمرى .

بدا رجل (سانتور) المتمرد ، عريض المنكبين طويل القامة بلحية مهذبة وعمامة ملونة وهو ينزل عن جواده يقول بسخرية :

— إن هذا الحصان ين من وطأة ثقلى عليه ، ليتنى استعنت بجمل .

لم يتلق ردًا فقال بأسى دون النظر وراءه :

في يوم أعلنت تمردى على (سانتور) ، وأوضحت له — بعد طول تفكير — أننى لا أصلح أن أكون مجرد رجل من رجاله ، وأخبرته أننى سأكون جيشى الخاص ، وأننى لن أتواجد بهذا الجيش الجديد فى المناطق الخاضعة لشره ، فاعترض على هذا التمرد ، وحذرنى أنه لا أحد يتمرد على (سانتور) العظيم أو يعصى أوامره ، وأمهلى حتى صباح اليوم التالى لأراجع نفسى .

سكت قليلاً ونظر لرفاقه فوجدهم يتبادلون قربة مياه ، ثم ناولها له ، شرب قليلاً ثم أكمل :

— لم أكثرث لتهديده ، وهربت فى الليل عائداً — على مسيرة يوم — إلى زوجتى وطفلتى الصغيرة أعدتهما للرحيل .

إلى مكان آخر ، ولكن توجب على تأجيل الرحيل يوماً واحداً على الأقل للراحة من إنهاك السفر .

تحولت لهجته إلى الشراسة وهو يستطرد :

استيقظت على صوت جلبة لأجد (سانتور) ورجاله خارج الكوخ
مقيدين زوجتي المسكينة وطفلي الصغيرة ذات الأعوام الثلاثة ، مكممين
فاهيهما والدموع تغمر أعينهما ، انطلقتُ باتجاههما ، لكن أصابني رمح
أحد الرجال ، ورأيت السفاح يسكب عليهما سائلاً أسود اللون كانا
ينفران من لزوجته على جسديهما وهو يقول لى ببطء : « لا أحد يخرج عن
طوع (سانتور) العظيم » ثم ألقى بشعلة فوقهما ، واحترقا أماى ..
احترقا وصوت صراخهما المكتوم يمزق قلبي ، وأنا عاجز عن إنقاذهما تماماً
لأن ثلاثة رجال كانوا يكبلونى وأحدهم يضغط على الجرح مكان إصابة
الرمح .

كان صوته متهدجاً فناداه الشيخ (عبد الحميد) ولما التفت رأى
الدموع تغمر عينيه ، أخذ يواسيه وكذا (الزين) و (على) حتى استرد
جأشه وقال لهما :

— لا داعى لهذا ، فأنا بخير .. رغم أن هذا الأمر لم يحض عليه سوى
خمسائة قمر وشمس .

قال (الزين) :

— وهل ما زال الانتقام فى قلبك من وقتها لم تنفذه ؟

— لن أكذب عليك أيها الفتى ، لقد حاولتُ مرتين وفشلت .. إن
رجال (سانتور) أوفياء له إلى حد لا يصدق ، فلا يمكن الاقتراب منه
حتى وهو نائم لأن خمسة رجال على الأقل يحرسونه حتى يستيقظ .

مضت هنيهة قبل أن يقول (على) :

— هل هو ذا سور مدينتنا .

— لكن أين جنود الأعداء ؟ لقد كنتُ أعلم أن العرافة تكذب .

هكذا قال (الزين ابن الجبال) .

وصل قائد جيوش الغرب إلى سور بلاد الشرق ، وبدأ في إلقاء الأوامر لمساعدته والجنود كى ينتشروا حسب الخطة المسبقة ، وفجأة انشقت الأرض عن رجل تحت كل جواد من جياد الأعداء يسحب ممتطيها عنها ويجرده من السلاح ثم يكبله ، وبعض الرجال فوق الجبل الخلفى وسور المدينة قد ظهروا يصطادون بسهامهم ونبالهم من لم يتمكن رفاقهم منهم ، شعر القائد بالعجز عن التصرف وفكر في طلب مدد من بلاده ولكن .. من عليه أن يرسله لإبلاغ الإمبراطور بمحاجتهم إلى مدد ؟

لما اقترب (الزين) من سور بلاده أكثر ، ارتفع حاجباه وتسمر مكانه فوق الجواد ، فسأله (على) :

— ماذا بك يا (زين) ؟

ردد (الزين) بعد عدة نداءات من (على) والشيخ (عبد الحميد) بينما رجل (سانتور) يتابع :

— « ابحث لى عن الصبر فى بلاد الغيظ ، وعن الحق فى بلاد الظلم ، وعن الجوع فى بلاد الغنى » .

ثم استطرد :

— لم أفعل أيًا من هذا .

ابتسم الشيخ (عبد الحميد) بينما ارتبك (على) وأعرب الرجل عن عدم فهمه ، وفجأة جال بخاطر (الزين) وجه الأميرة (سولى) .. وشعر بخفقان قلبه وفقد تركيزه ، ثم قرر الثلاثة دخول بلادهم .
بحذر .

نجح قائد جيوش الغرب مستخدمًا درعه وسيفه فى الهروب من أعدائه والابتعاد قدر الإمكان عن ساحة الأسر ، ولم يعرف أين يذهب فأخذ يدور حول الجبال المتناثرة حتى قابله رجل ضخيم الجثة يشوى شيئًا داخل كهف قريب ، سأله القائد دون أن يفصح عن هويته :

— أين أجد (سانتور) ؟

أجابته ضخيم الجثة :

— أنت غريب عن هذه الناحية ، أأست كذلك ؟

لم يرد عليه القائد ، فقال ضخيم الجثة من جديد :

— أنت تريد السفاح إذن ، فيم تريده ؟

كرر القائد :

— أين أجد (سانتور) ؟

ناولته الضخم قطعة مما يشوى ، فأبى القائد تناولها منتظرًا الإجابة ،
قضم الرجل قطعة بطريقة منفردة ، ثم قال من بين الدهن المتساقط :

— عشرين قطعة ذهبية وجوادك هذا .

هز القائد رأسه بمعنى أنه لم يفهم ، فقام الرجل ومد يده المملوطة إلى الجواد ثم فرك إصبعيه السبابة والإبهام وبعدها انتصبت أصابع يديه مرتين ليعلن عن عشرين إصبعًا ، أخرج القائد كيسًا صغيرًا ألقاه إلى الضخم ونزل عن جواده ماديًا إليه اللجام ، ابتسم الضخم وسار به إلى حيث (سانتور) .

وصل الضخم راكبًا الحصان مع القائد المترجل حتى يعلو بطنه كهف يشوى أمامه عدد من الرجال لحمًا جال القائد بعينه فيما حوله ليجد أن الكثيرين منهم ينتشرون على حواف الجبال المحيطة ، وأن عددًا آخر يشوى لحمًا أمام كهف آخر في أحد الجبال ، ثم سمع الضخم يصيح :

— زائر لسيدى (سانتور) العظيم ، وهو مجرد من أى سلاح .

صاح أحد الرجال من أمام أحد الكهوف :

— هنا .

استدار ناحيته الضخم ثم لكز جواده في الاتجاه ، وتبعه القائد حتى ترجل الضخم وتسلفا معًا حيث الكهف . حاول الضخم أن يتكلم وسط لهاته ، ولكن السفاح أشار إليه بالصمت وهو يوجه كلامه إلى القائد :

— ماذا هناك ؟

— كارثة .. سقط جنودى فى مصيدة سخيفة دبرها جنود الأعداء ، واستطعت الفرار بمعجزة .

— والمطلوب ؟

— مساعدتك لى ، أريد إرسال مدد من الإمبراطور .

سأله السفاح وهو يناوله بعض الماء :

— ولماذا لا تذهب بنفسك ؟

تناول الماء وشرب منه ثم أجاب :

— على الاسترخاء حتى يصل الجنود لأتمكن من قيادهم ، وكذا تجهيز خطة مناسبة بمعاونتك للتغلب على هؤلاء الشياطين .

قهقهه (سانتور) عاليًا وطويلاً ، ثم قال والقائد مندهش :

— أنت تخشى أن يعاقبك حاكم بلادك أو يعزلك ، أليس كذلك ؟

وعاود القهقهة من جديد ، فقام القائد محتقن الوجه يقول بغضب :

— مولاي الإمبراطور يثق بكفاءتى وقدرتى على السيطرة على الأمور ، لولا هذا ما كلفنى بقيادة جيش البلاد أيها الأحق .

لم يكده يلفظ كلمته الأخيرة حتى وقفت ذوابات الكثير من سيوف رجال (سانتور) بسرعة على حافة عنقه ، بينما أوجه حاملها تنتظر أوامر زعيمهم الذى أشار بيده ليتراجعوا ، ولما فعلوا قال (سانتور) محذراً القائد :

— إياك أن تتجاوز حدودك مرة أخرى ، وعليك أن تتحدث معى بهتذيب أكثر من هذا ، فأنا لست واحداً من رجالك المأسورين .

وصمت قليلاً متطلعاً إلى وجه القائد المتوتر ، ثم أضاف منتقماً :

— أيها الأحق .

لم يرد القائد فقام (سانتور) وأخذ يلقي بأوامر عديدة على رجاله
وخرج يتفقد الآخرين المتناثرين حول كهفه ، ثم عاد للقائد وقال له :

— هاك ما سنفعله أيها القائد الفاشل ، ولتتعلم ممن سبقوك في القيادة
وتولى زمام الأمور .

وبدأ يملأ عليه خطته .

٩ - النهاية وما قبلها ..

دخل حاجب الملك (شاكسیر) ديوان الحكم وهو يقول :

— الشيخ (عبد الحميد) وثلاثة معه يستأذنون في الدخول يا مولای .

أوماً الملك برأسه فانحنى الحارس وخرج ليدخل الرجال الأربعة محيين الملك ، ثم استفسر الشيخ عن خطر الحرب على بلادهم الذى سمعوا به في رحلتهم فطمأنهم ، ثم تساءل بدوره عن الغريب الرابع المرافق لهم :

— إنه رجل طيب قابلناه في رحلتنا يا جلالة الملك ، وهو أيضاً فارس شجاع يمكننا ضمه لجيشنا إن شاء .

هكذا أجاب الشيخ (عبد الحميد) فسأله الملك :

— هل هو أهل لثقتك يا شيخ ؟ أنت تعلم أن جيش البلاد ...

قاطعہ الشيخ بقوله :

— لا تقلق يا مولای ، إنه مكسب لبلادنا وجيشها .

كان الرجل متردداً مندهشاً مما قيل بحقه ، ثم اضطرب حينما سأله الملك :

— هل لك خبرات في القيادة من قبل ؟

لم يدر بما يجيبه ، فأنقذه الشيخ بقوله للملك :

— ما دامت كل الأمور بخير أفلا نرتاح قليلاً من عناء السفر يا ملك بلاد الشرق ؟

ابتسم الملك وهو يقول :

— بلی یا (عبد الحمید) ، یکنکم الانصراف الآن ، ولكنی أريد
 (الزین) فور حصوله على القسط الكافي من الراحة .
 — أمر مولای الملك .

هكذا أجاب (الزین) وهو يجول بعينه في الديوان ، ثم انصرف
 الجميع .

* * *

كان إمبراطور بلاد الغرب يجوب ديوانه بغضب وهو يقول بسخط :
 — لا أفهم كيف يمكنی إرضاء هذا الشعب المخبول ، لا شيء
 يرضيهم أبدًا .

— والدك كان يرضيهم .

التفت الإمبراطور إلى وزيره بغضب ، وهو يقول :

— والدي؟! هل نسيت ما حدث لوالدي أم إنه علىّ تذكرك
 يا صديقي الوفي؟!

ابتسم الوزير وقال بهدوئه المعتاد :

— بل ذكرني بما حدث لك أنت ، ألم تصبح إمبراطور البلاد ؟

— بلى ، ولكنني عاجز عن تصريف أمورها العثرة .

— لا أحد يسير الأمور وحده ، عليك بالاعتماد على من كان
 ناجحًا في هذا .

اقترب الوزير منه وربت على كتفه ، وقال في أذنه بهمس :

— والدك لم يكن له طموح ، كان عجزاً سئم الدنيا وينتظر لحظته الأخيرة .. ورغم هذا فلم يهتم بتأهيلك لتدبر زمام الأمور من بعده ، لم يكن يثق بقدرتك على حكم شعب بأكمله ، لذا فعليك أن تعتمد على نفسك في هذا .. وأنا سأعاونك حتى تصبح ملك الأرض كلها لا بلاد الغرب فحسب .

صمت قليلاً يتابع كلماته على صاحبه ثم عاود الحديث :

— سأساعدك في هذا ، المهم ألا تيأس بسرعة ، فمثل هذه الأمور تحتاج إلى وقت طويل للإعداد وجهد كبير للتنفيذ وكم وفير من الصبر والتأني يا .. صديقي .

سأله الإمبراطور :

— وماذا عن الحروب ؟ غزونا لبلاد الشرق ؟ إن الشعب غير راضٍ عن هذا .

— وما أدرهم بما هو في صالحهم ؟ اصبر حتى تصبح هذه البلاد ضمن ولاياتنا ويعم خيرها هؤلاء المعترضين الأغبياء ، وقتها سيقبلون يدك بل وربما سجدوا لك تقديراً لاهتمامك بهم ورعايتك لمستقبل أولادهم .

ابتسم الإمبراطور وهو يسرح بخياله للمستقبل ، ويرسم بعينه في الهواء عرشاً أكبر مما هو جالس عليه الآن .

سأل (علي التوحيدى) الشيخ (عبد الحميد) وهما بداخل منزل الأخير يرتبانه :

— لم تخبرنى يا شيخ كيف أنقذت (البقدونسى) والمعلم (خازن) يوم كانا في الأسر ؟

ابتسم الشيخ واعتدل في وقفته كأنما يتذكر أحداثاً لطيفة ، ثم أجاب :

— لم يكن بالأمر العسير يا (عليّ) ، فقد تابعت تحركات حراس الأسرى حتى اقترب أحدهم من مخبأى والآخر من مشغلون عنه بجبلية صنعها (البقدونسي) ، مشاجرة سريعة بيننا غاب بعدها عن الوعي ، وكانت خطى تعتمد على ارتداء ملابسه كي يظن رفاقه أنني واحد منهم ، ولكن اعتمدت على غطاء الرأس الحديدي الذي يرتدونه والعباءة الحمراء ، ثم اتجهت ممسكاً برمحه ناحية (خازن) و (البقدونسي) الذي كاد يلقي بعبارة ما سخيفة كعاداته ويلفت الأنظار من جديد ، فأمسكت بهما كمن يقودهما إلى جهة ما مخفياً وجهي في ظهريهما ، وخذعت ملابسي الحراس حتى أصبحنا بمنأى عنهم .. وهربنا .

— يا للعبقريّة !

هتفها (عليّ) يعجاب ، فرد عليه الشيخ :

— العبقريّة تكمن في البساطة والثقة بالنفس يا (عليّ) .. هلم لنفرغ من هذه الدار نرتاح قليلاً قبل الذهاب إلى الملك .

قال (عليّ) بقلق :

— بشأن (الزين) ؟

— هل تعلم أن الملك سيُسر كثيراً عندما يعرف بأحداث رحلتنا ؟

سأله (عليّ) بتعجب :

— يُسر ؟ ولكن كيف ؟ إن (الزين) لم ينفذ شيئاً مما أرسله الملك لتحصيله .. لا الجوع في بلاد الغنى ولا هذه الأمور كلها .

اتسعت ابتسامة الشيخ وهو يقول :

— يا (على) ، ما كان الملك يعنى هذا بالحرف ، لكنه أراد من (الزين) أن يكتسب الخبرات ويجوب البلاد .. وأنا أدرك تمامًا أنه كان يتوقع اصطحاب (الزين) لى فى الرحلة ، وبذا يستفيد من خبراتى بشكل أوسع وأسرع كى يتمكن من حكم بلاد الشرق كما هى إرادة الملك .. ولكننى أظن الملك سيجعل من (الزين) مساعده أو معاونه لفترة كى يكتسب خبرة الأمور الخاصة بشكل الحكم وكيفيته داخل القصر .

تمتم (على) :

— ولكنك يا شيخ .. أعنى ...

لم يخرج ما يجول بنفسه على لسانه فاستدركه الشيخ :

— كلا يا (على) ، لم يخبرنى الملك بأى مما قلته لك ، ولكنها الصداقة القديمة بيننا .. قد أصبح كلانا يفهم الآخر بمجرد التفكير يا ولدى ، وهذه أمور لا تبدى إلا للأتقياء .

خفض (على) رأسه فأكمل الشيخ :

— وهذا لا يعنى أنك و (الزين) لستما بالنقاء المطلوب ، ولكنكما لم تنتبها للأمر بعد .

هلبلت أسارير (على) بعض الشيء ، ثم سأل :

— لكن يا شيخ كيف عرف (البقدونسى) بأمرنا عند السفاح ؟

تطلع الشيخ فى عينيه مباشرة ، وهو يقول :

— صدقنى يا (على) ، بحياتى لم أجد (البقدونسى) شديد الغموض مثل ذلك اليوم ، ولكن يمكننا اعتبارها تصارييف القدر .. نحن أيضًا ما كنا لنعرف بغزو الأعداء لبلادنا فى الرحلة لولا تصارييف القدر .. أليس كذلك ؟

— بلی یا شیخ .

جلس الشيخ ينظر إلى (علی) طويلاً ، فبادره الأخير سائلاً :

— ماذا تريد أن تسألني يا شيخ ؟

أجاب الشيخ بسرعة وهدوء :

— ألا تغار من اختيار الملك لـ (الزين) كى يكون ملكاً للبلاد ولم
يخترك أنت ؟

— كلا يا سيدى على الإطلاق ، أنت تعلم أننى أحب الخير لصديقى
هذا ، وكون (الزين) هو الملك أو أنا ففى الحالتين كأئننى أنا الملك بالفعل ..
هل سيتأخر (الزين) عنى فى أى مطلب حين يكون ملكاً ؟ لا أظن .

— ولكن يا بنى ، للسلطة شهوتها وغرورها .

— لن يكون (الزين) إذن أهلاً للحكم لو غلبته السلطة ، وأنت تعلم
أكثر منى أنهما لن تفرهما .

نظر الشيخ إلى أعلى ثم إلى (علی) ثم إلى الأرض ، والدموع تخالط
ابتسامته .

وقف (الزين) أمام الملك (شاكسير) يجيب :

— بلى يا جلالة الملك ، ولكننا فور علمنا بأمر اتجاه جيوش الغرب إلى
مملكة الشرق لغزوها ، قررنا إنهاء الرحلة والعودة لمساندة أهلنا .

— فى الحقيقة أننى لا أستطيع الجزم بصواب أو خطأ هذا القرار ،
ولكن حسن النية فيه وعدم التسبب بأضرار لأحد أمر كاف لإدراك أنك
بذلت جهدك .

فخص الملك واتجه ناحية (الزين) وهو يقول مبتسمًا :

— لقد جعلتك تنبش في الأرض عن الصعاب كي تجدها ، حتى عندما يقف أمامك رجل تستطيع أن تنبش بداخله ، وتعرف أصدق هو أم عدو .. مخلص لك أو مدع .

— ولكنني لم أحقق ما أمرتني به يا مولاي ، فما وجدت العدل في بلاد الظلم ، ولا ...

قاطعه الملك :

— كان هدفي الأول أن تكتسب خبرات الحياة بشكل أكثر وأسرع يا (زين) .. وكنت متوقعًا اصطحابك للشيخ (عبد الحميد) .

استطرد الملك :

— أنت تعلم يا ولدي أنه ليس من سمات بلادنا تملك حكمها للنساء ، فهن رقيقات القلب يتبعن عواطفهن المرفهة لا عقولهن ، كما أنهن لا يملكن الخبرة والحكمة كالرجال الذين يطوفون البلاد ويتعاملون مع صنوف البشر المختلفة .. إنهن محصورات في علاقاتهن مع الأقارب والجارات .

صمت الملك قليلاً ثم توجه إلى عرشه وهو يكمل :

— أنت ستصبح زوج ابنتي ، وستتولى حكم البلاد في يوم من الأيام .

نظر إليه (الزين) بدهشة ، فقال الملك مبتسمًا وهو يغمز بعينه :

— لا تظنني لم ألاحظ نظرات الإعجاب في عينيك .

أطرق (الزين) خجلاً وهو يتمتم فقاطعه الملك مرة أخرى :

— وهي كذلك .

ارتفع وجه (الزين) إلى الملك منبهراً راغباً في الاستزادة ، لولا دخول الحاجب :

- الشيخ (عبد الحميد) وشاب مرافق له يا مولاي الملك .
- فليدخلا ، وابعث إلينا بالسفاح مع ثلاثة من الحراس الأشداء .
- ثم وجه كلامه إلى (الزين) :
- لا بد أن نضع حدًا لهذا السفاح ونقرر ما علينا أن نصنع به .
- أوماً (الزين) برأسه بينما دخل الشيخ و (عليّ) ، فرحب بهما الملك وسألهما :
- أين صديقك الذي أوصيت أن يكون في جيش البلاد يا (عبد الحميد) ؟
- في الحقيقة أيها الملك إنني ...
- قاطعته الملك بهدوء :
- أعلم أنك لم تعن ما قلته يا (عبد الحميد) ، أنت كنت تحاول تعليم ذلك الرجل شيئاً ما ، أليس كذلك ؟
- ابتسم الشيخ وهو يجيب باقتضاب :
- بلى .
- دخل ثلاثة من الحراس حاملين (سانتور) على أكتافهم ليعيقوا حريته في التحرك ، وكان يرتدى نفس الملابس التي سُجن بها .. جلاباب يعلوه وشاح يحيط برقبة ، كان الجميع جلوساً يحدقون فيه فقال بسخرية :
- فيم تحملقون ؟ أتظنونني قردًا ؟
- تجاهل الجميع جهلته ، ودخل الحاجب يهمس في أذن الملك الذي أوماً برأسه ثم سألهم :
- ماذا ترون أن نصنع بسفاح مثله يا سادة ؟

بدأ (سانتور) فى الاحتجاج والصياح وكان يهتز فوق أكتاف الحراس حتى سقط ، فى اللحظة التى دخلت أميرة البلاد متجهة نحو أبيها ، فسحب وشاحه ليظهر من تحته سوطاً غليظاً أخذ يجلد به الحراس وهو يدور حول نفسه ، كان الأمر سريعاً مربكاً ، لكن (الزين) كان أكثر الجميع حنكة إذ قفز باتجاه الأميرة وألقى بها أرضاً ، ثم سحبها ناحية العرش ليتمكن من حمايتها مع الملك فى الوقت الذى كان فيه (على) يحاول قطع السوط الطويل بسيفه ، لكن بدا (سانتور) ماهراً فى إبعاده عن ذؤابة سيف (على) ، ووسط هذه الجلبة دخل الكثير من حراس القصر إلى الديوان لولا أن صاح بهم الشيخ (عبد الحميد) آمراً :

— عودوا لحماية القصر .. كل غرفة فيه ، كل مدخل .. أسرعوا .

تردد الحراس لأنه من غير المنطقى تنفيذ أوامر رجل غير قائدهم والملك ، ولكن صاح بهم الأخير بدوره :

— افعلوا كما أمر .. هيا .

بينما هم منتشرون فى أرجاء القصر ، دخل وزير الدولة ساخطاً يقول :

— ماذا يحدث هنا ؟

صاح به (سانتور) وهو لا يزال يضرب بسوطه فى الهواء كى يمنع اقتراب أى من الموجودين ناحيته :

— اخرس والزم مكانك .

ثم استطرد ساخراً :

— المزيد من الشيوخ إذن ، يا لها من دولة تستحق الاحتلال حقاً .

وقفت الأميرة على قدميها تتعلق بـ (الزين) وتهمس فى أذنه :

هل يمكنى مساعدتك أيها الفارس ؟ إننى أرغب فى ذلك حقاً .

لم يمنع (الزين) نفسه من الابتسام وهو يقول هامساً :

— هذه ليست رحلة صيد أيتها الأميرة ، إن الأمر شديد الخطورة بحق .

— أعلم هذا ، لذا أريد المساعدة .. أريد أن أفعل شيئاً له أهمية .

شارك (الزين) الآخرين تفكيرهم الصامت فيما يتوجب عليهم فعله لإنهاء هذا الوضع الحرج ، وكان أول المتكلمين هو (الملك) :

— ما هى خطتك أيها السفاح ، أتظنك قادراً على الخروج من هنا سالماً وأنت فى وضعك هذا ؟

وسأله الشيخ (عبد الحميد) :

— هل هناك من يشئت انتباهنا من أجل أن يقتحم القصر مثلاً ؟

شعرت الأميرة بسؤال فى حلقها فأخرجته :

— كيف تخلصت من قيودك ؟! لابد أنك كنت مقيداً أيها الشرير .

هذه المرة كانت الوحيدة الذى التفت فيها (سانتور) إلى محدثه وأخذ يقهقه ، وكانت أفضل فرصة ليمزق (على) السوط ويرمى (الزين) بسيفه إلى صدر (سانتور) ، ولكن السيف مزق جزءاً فقط من ملابسه مصدراً رنة معدنية قال بعدها (سانتور) وهو يتناول سيف (الزين) :

— درع واقٍ مثبت إلى الصدر ، فكرة لم تخطر لأكثركم حدقاً أيها الفتى .

كان وضع (على) شديد الصعوبة بعد أن امتلك (سانتور) سيفاً ، فسأل من مكانه :

— معه سيف الآن يا (زين) ، ماذا ترانا فاعلين ؟

صاح به (الزين) :

— لا أدري يا (على) فكر بشيء .

سألته الأميرة :

— هل أفكر معكما ؟

سحبها الملك وضمها إلى صدره وهو يقول :

— لا تخافى يا بنيتى ، ستمر الأمور بسلام .

سحبت نفسها منه وهى تقول :

— أنا لست خائفة يا أبى ، ولكنى أريد أن تنتصر على هذا الشرير .

لم يكن الاتفاق بين (سانتور) وقائد جيوش الغرب سوى خطة شيطانية يحقق بها السفاح مآربه ، ففى الكهف ألقى على مسامع القائد ما أذهله :

— سأذهب إلى ملك هذه البلاد أقبلقه أو أدعى أى شيء يرفضه ، ثم يزج بى فى السجن ، سيحضر الشيخ (عبد الحميد) ، وقتها يستدعيني الملك لأمثل أمامهما ، سأوفر لك بهذا الكثير من الوقت لتكون قد جلبت مدداً من بلادك ، سأحدث جلبة فى ديوان القصر وسيجتمع معظم الحراس فيه ، سيقوم رجالى باقتحام القصر وقتل الحراس وأسر الخدم والملك وابنته .. ريثما يصل الخبر إلى المدينة كلها سيقل عدد الجنود القائمين على حراستها ، وقتها يحين دورك .. عليك اقتحام المدينة فى وقت سريع جداً والاتجاه إلى القصر لمساعدتى .. سأعتمد عليك .

— أنت شیطان .

قالها القائد بانهار ، فرد عليه (سانتور) متصنعا التواضع :

— لا داعی للمجاملات الآن .

وقفت الأميرة تتطلع إلى (الزین) یاعجاب وهي تقول له :

— هل تعلم أنى تمیت يوما مشاركتك إحدى المغامرات ؟

— هل راق لك الأمر ؟

— جدًا .. إننى سعيدة أن خُصت مغامرة تحتوى بعض الخطر .

ثم استطردت :

— وأن هذه المغامرة كانت معك أنت .

— أنا أيضًا سعيد أن حققتُ لك شيئًا تأملينه .

اقترب منهما الملك يقول :

— يمكنكما إكمال حديثكما فى البستان خارج القصر .

أمسك (الزین) بيد الأميرة وهي تقول له متجهين إلى خارج القصر :

— هل تعرف قصة من يدعى « الشاطر حسن » الذى انتصر على

« الغولة » وكسب قلب أميرة البلاد ؟ لقد حدثنى بها الوصيفة الكثير من المرات .

ابتسم (الزین) وهو يسألها :

— أكان حقًا يدعى (حسن) ؟

- ما لك منهكاً رثاً يا قائد جيوش الغرب ؟
- قالها إمبراطور بلاد الغرب وهو جالس على عرشه ومن خلفه وزيره صديقه — فأجاب القائد :
- انجدي يا مولاي الإمبراطور .. لقد أسروا الكثير من الجنود وقتلوا بعضهم ، إنني بحاجة إلى مدد للسيطرة على الأمور .
- قطب الوزير حاجبيه بينما صاح الإمبراطور الشاب بغضب :
- كيف حدث هذا ؟ أى قائد جيوش أنت لتصل أمورك إلى هذا الحد ؟
- قال الوزير :
- بل وكيف نجوت أنت دون الباقيين ، ألا ترى هذا غريباً أيها القائد ؟
- قالها بلهجة فهمها القائد وجزع منها ، سأله الإمبراطور :
- ماذا تعنى يا وزير البلاد ؟
- إنني أتحدث عن خيانة ما هنا يا جلالة الإمبراطور .
- ردد الإمبراطور كلمة « خيانة » مرتين وهو يقطب جبينه مسلطاً نظراته على القائد الجزع الذى قال :
- أى اتهام هذا يا مولاي ؟ إن ولائى لجلالتكم والبلاد أمر لاشك فيه أبداً .
- أخبرنى إذن بما فعلته كي تنقذ نفسك مخلفاً وراءك جنودك قتلى وأسرى .
- شرع القائد يحكى خطته وكيفية تنفيذها وخروج جنود بلاد الشرق من تحت الأرض ، واستمر حتى وصل إلى نقطة ذهابه إلى (سانتور) فصاح الوزير جزعاً :
- السفاح !!؟

وبعد هذا لم يتمكن من تبرير موقفه أبداً ، والندم يفتك بقلب الإمبراطور لما اتخذته بشأن القائد السابق .

بعد فترة لم يجد السفاح أى بادرة لاقتحام جيش الغرب للمدينة ، أو لاقتحام رجاله المنتشرين فى أرجائها قصر الملك - كما هو متفق - فى حال عدم حضور قائد جيوش الغرب ومدده ، فقرر أن يرتجل .. قال :

— أود مبارزة الشاب الفقى رجلاً لرجل .. ولو أنه انتصر فافعلوا ما يحلوا لكم بي .. ولو أننى انتصرت فأخرج من هنا آمناً .

بادر (الزين) بالرد قائلاً :

— كلا أيها السفاح ، أنا أرفض مبارزتك .

اندesh الجميع خاصة الأميرة لردة الفعل غير المتوقعة هذه ، فقال (سانتور) - برغم دهشته بدوره - :

— أحيى فيك تقديرى لنفسك ومعرفتك بعجزك عن الانتصار على .

— ليس الأمر هكذا ، ولكننى فقط لا أرغب فى منازلتك .

لم يتمالك الملك السيطرة على فضوله الشخصى فسأل (الزين) :

— لماذا يا (زين) ؟

— لأنه يا مولاي فى موقف الأضعف ، يمكننا فعل ما نشاء به دون الحاجة إلى منزلة سخيفة لا طائل من ورائها سوى إثبات قوة الأقوى .. لم ترى أنه علينا الخضوع لرغبته يا مولاي ؟

كان (الزين) فى إجابته متجهماً بوجهه ناحية الملك .. علق (سانتور) قائلاً :

— ولكننى فى الموقف الأقوى ، لدى سيفى بمهارتى وقوتى وأعلم أنكم مجتمعين لا تستطيعون هزيمتى .

تحركت الأميرة باتجاهه متممة بأشياء غير مفهومة مقطبة جبينها تحرك يديها ، ثم وقفت أمام (الزين) الذى اتجه بجسده ناحية (سانتور) وقد ملح فى نطاق الأميرة خنجرًا صغيرًا ، تظاهرت الأميرة بالتراجع والسقوط فلاحقها (الزين) وبينما هو يفعل سحب الخنجر بسلاسة وعاونها على النهوض مرة أخرى ويده خلف ظهرها فانحنيت للأمام بسرعة وألقى (الزين) بخنجره ناحية (سانتور) وهو يصيح :

— الآن يا (على) .

وبينما كان السفاح يتفادى الخنجر المصوب إلى رقبته قفز (على) باتجاهه مسلطاً ذؤابة سيفه على الرقبة بعد أن ركل الآخر المسك به السفاح ، ثم صاحت الأميرة وهى تصفق :

— انتصرنا ، لقد كان الخنجر مثبتاً إلى ظهر العرش .

قال الشيخ (عبد الحميد) بتنهد :

— انتصرنا .

دخل كبير الجند فجأة ليفاجأ بالوضع الذى عليه الجميع ، فقال باندهاش :

— لقد ألقينا القبض على عدد من الرجال ذوى الملابس الخضراء

يا مولاي بالخارج .. كانوا ينوون ...

قطع حديثه قليلاً ، ثم استطرد :

— ماذا يحدث هنا يا مولاي ؟

— لا بأس يا كبير الجند ، لا شأن لك بأى تقصير .. ماذا عمن ألقیت القبض عليهم ؟

— لقد كانوا ينوون اقتحام القصر ، لكن لحهم بعض الجنود عند عودهم أثناء تبديل الدورية .

وكانت الأسئلة تتردد فى الأذهان ..

كان ما يلح على (على التوحيدى) هو : كيف عرف (الزين) بأمر قتاله مع ذوى الملابس الخضراء منذ بضعة أسابيع ؟!

وكان يلح على (الزين) : كيف أن (البقدونسى) عرف بمكان وجودهم أسرى عند السفاح ؟!

تمت